صافيناز كاظم

الخديعة الناصرية

شهادة مواطنة مصرية
على سنوات عاشتها

دار الاعتصام

الخديعة الناصرية

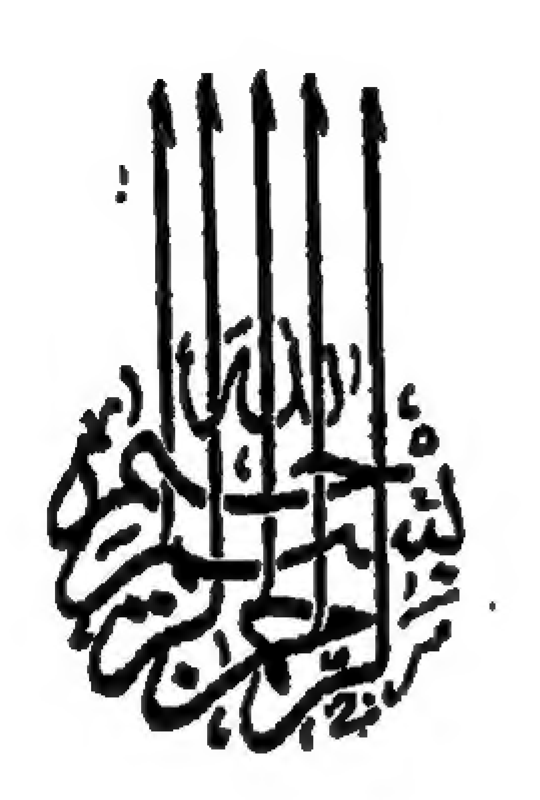
صافيناز كاظم



من أوراق شعب مصر السرية

شهادة مواطنة مصرية
على سنوات عاشتها

دار الاعتصام



مقدمة

لا شك أن السنوات الست عشرة التى تولى جمـــال عبد الناصر فيها مسئولية الانفراد الكامل بحكم مصر ــ (منذ ١٩٥٤ ــ ١٩٧٠) ــ لا شك انها ســــنوات ستظل تخضـــع لكثير من البحث والتـــأمل ، فى محـــاولات تحلـــيل ايجابياتهـــا وسلبياتها .. ومع هذا فان المواطن الذى عاش وعايش هذه الفترة تحت ظل حكم عبد الناصر ، وما زال يعايش حتى الآن الطقس السياسى الذى يخضع تيارات الساحة المصرية لأحــــكامه ــ يستطيع أن يلقى الضوء ــ ولو من وجهة نظره ــ على ما دار ويدور فى وعلى الساحة المصرية .

* * *

عندما قامت حركة ١٩٥٢/٧/٢٣ لم تكن مصر أرضا نائمة أيقظتها هذه الحركة .. بل على النقيض : كانت مصر حبلى بالثورة وبالتمرد معا ، وكانت فى مرحلتها الأخيرة الناضجة المهيأة للوضع والميلاد للانطلاق الى فجر عصرجديد.. وعندما سبقت حركة الضباط — عام ١٩٥٢ — كل التكتلات الوطنية الأخرى الى التمرد — وليس الى الثورة — على الأوضاع الفاسدة ، وعلى الوضعية السياسية ، التى انتهت شرعيتها فى أذهان الجماهير حتى قبل سقوطها ، التف حولها الشعب مسقطا عليها كل أحلامه الثورية التى تشوق اليها طويلا ، خاصة بعد مرارة الهزيمة فى فلسطين عام ١٩٤٨ . وفى غمرة الحماس الشعبى الذى تبنى حركة الضباط ولقبها بالثورة — لأنه كان يريدها كذلك — لم يكن بوسع أحد أن يقف ليراقب بدقة موقف هذه الحركة الجديدة .. بل على العكس وافق الحماس الشعبى على أن يقوم بوعى منه أو بلا وعى — بدور « المبرر » لكل الأخطاء التى ارتكبتها هذه الحركة منذ الشهر الأول لتوليها الزمام فى مصر .. هذه الأخطاء التى وصلت فى حالات الى درجة الخطأ الفادح ، وفى حالات

اخرى الى درجة الجريمة النكراء ، ثم بلغت فى نهاية جولتها درجة خيانة الشعب وخيانة مبادئه وأهدافه وقضاياه : (الاسلام ، تحرير المواطن من الجهل والفقر والمرض ، تحرير فلسطين باعادتها أرضا ودولة عربية اسلامية بالقضاء التام على الكيان الصهيونى) .

لم يقف الشعب ليناقش مفاهيم ومدلولات شعار « الثورة البيضاء » — الذى أطلقه الضباط على حركتهم — ليتساءل ويقارن «بيضاء» على من ؟ و «حمراء» على من ؟ و «سوداء» على من ؟ فقد خلع الملك وتم الابقاء فترة على ولى عهده الأمير أحمد فؤاد ، وأعطى الملك حق «الموافقة» على الثورة بأن تقدم الضباط للملك بطلب التنازل عن العرش وترك البلاد . وجاء بيان الاذاعة يقول : « ... وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين » ! .

وتم رحيل الملك فى ٥٢/٧/٢٦ عن مصر فى يخته المحروسة مودعا بكامل الاحترام والحقوق الملكية الواجبة له ، ولم يمس كادر ملكى من اتباعه بشعرة اذى واحدة .. وكان هذا هو الجانب الأبيض السلمى لهذه الحركة. .لأنه وبعد اسبوعين فقط من تطبيق هذا السلوك المهذب « الحضارى ! » مع ملك مدان هو ونظامه بعديد من الجرائم ضد شعب مصر ومصالحه ،

توافق أن قامت فى مصانع كفر الدوار للغزل والنســيج ـــ (يوم ١٩٥٢/٨/١٠ أو ١٩٥٢/٨/١٢ اذا لم تخنى الذاكرة) ـــ مظاهرة تمرد ضد الادارة الرجعية التى لم يكن قد تم تغييرها بعد من قبل حركة الجيش .. وكانت هذه المظاهرة التى قام بها عمال المصنع قد رفعت شعارات الحركة الجديدة التى جاءت ـــ كما قيل فى الاذاعة ـــ ضد الفساد والاستغلال ، وهتف العمال بحياة القائد العام ومنيته الثوار ، وكانوا قد تصوروا أن هذه الحركة لابد متبنية لمطالبهم مساندة لموقفهم ضد الادارة الرجعية ـــ ولكن العجيب حـــدث : اذ كشرت الحركة الجديدة صاحبة شعار « الثورة البيضاء » عن أنيابها وتحالفت مع الادارة الرجعية وتم قمع مظاهرة العمال دون أية محاولة لتفهمها ، ودراسة بواعثها . وأقيمت فورا المحكمة العسكرية لمحاكمة « العصاة » : وتم تقديم ما يربو عن ٦٠ متهما وتم تحديد زعمائهم باتهام العامل «خميس» (١٨ سنة) والخفير «البقرى» (١٩ر٥ سنة) وهو أب يعول خمسة أطفال وأم معدمة تبيع الفجل وتكسب القليل فى اليوم ! وكان من بين المقدمين للمحاكمة : أطفال فى سن العاشرة والحادية عشرة « شاءت انسانية المحكمة وعدالتها أن تحكم ببراءتهم » رغم ثبوت جريمة سرقة بعض أثواب القماش عليهم .. كما جاء

فى تقرير احكام قضية عمال كفر الدوار الذى صدر عن ادارة القوات المسلحة ١٩٥٢/٨ برجاء الرجوع اليه لأنه وثيقة كاملة دامغة تساعدنا فى فهم الطبيعة الفاشستية لهؤلاء الضباط التى عبرت عن نواياها منذ الشهر الأول لقيام هذه الحركة .

* * *

وفى اقل من اربعة أيام ، تمت محاكمة هذا العدد الكبير من المتهمين . وصدرت الأحكام باعدام خميس والبقرى والأشغال الشاقة المؤبدة وسنوات سجن أخرى لبقية المتهمين. وتم تجميع عمال المصنع كلهم فى النادى الرياضى وأجلسوا حلقة كبيرة على الأرض حيث أذيعت فيهم الأحكام المرعبة من خلال مكبرات الصوت وسط طقس من الذهول الكامل .

ويقول شهود الواقعة من الصحفيين الذين أثبتوا شهادتهم فى تحقيقات صحفية نشرت بالمصور وآخر ساعة وغيرها من الصحف فى شهر اغسطس ١٩٥٢ أن المتهم « البقرى » وزميله « خميس » استمرا يصرخان فى المحكمة : « يا عالم ... يا هوه مش معقول كده ... هاتوا لنا محامى على حسابنا حتى ... ده احنا هتفنا بحياة القائد العام ... ده احنا فرحنا بالثورة المباركة ... مش معقول كده ... » .

وبناء على هذه الصرخات سألت المحكمة الجلوس :

ـ حد فيكم محامى يقبل الدفاع عنهم ؟

فتقدم موسى صبرى المحامى (الصحفى الآن) وقال : انا محامى . وسمح له بالجلوس مع المتهمين دقائق . وبعدها قدم مرافعة شكلية قصيرة ثبتت التهمة على الشهيدين .

وتم تنفيذ الاعدام فى البقرى وخميس يوم ١٩٥٢/٨/١٧ وسجلت الصحافة وقتها اللحظات الأخيرة فى حياة خميس والبقرى ـ (انظر مجلتى المصور وآخر ساعة اعداد شهر ١٩٥٢/٨) وقد وصفهما محرر آخر ساعة صلاح هلال بأنهما شيوعيان ! ! والثابت انهما لم يكونا منتمين الى اى فكر سياسى ، ولم تكن المظاهرة سوى تعبير وطنى عام عن الفرح بقدوم عهد جديد ، وفرصة للتنفيس عن بغضهم للادارة الرجعية الظالمة . . والطريف أن الحزب الشيوعى المصرى تنصل وقتها من انتمائهما وانكره ، أما الآن ـ وبعد أن اعيدت ذكرى الظلم الذى وقع على خميس وبقرى ـ فيطيب للماركسيين المصريين أن ينوهوا ويفتخروا ويؤكدوا أن خميس وبقرى كانا بالفعل من الشيوعيين . وهذا غير صحيح ولم يكن أبداً) .

في نفس الفترة حدث تمرد حقيقي بالصعيد ضد مصالح الشعب وضد حركة ١٩٥٢ بصفتها حركة لصالح الشعب . قام بهذا التمرد المسلح اقطاعي اسمه عدلي لملوم ، لم يكف هو وأمه عن كيل السباب أثناء محاكمته ، ضد الثورة وضد الفلاحين . وحكمت عليه المحكمة بالمؤبد ثم خففته فيما بعد * حتى تفسح له مكانا من رحمة شعارها «الثورة البيضاء» : هذا الشعار الذي شملت به الملك من قبل ، واتسع ليضم كل الفاسدين المفسدين من سفاحي الشعب المصري حقا : من وزراء ورجالات واقطاعي « العهد البائد » والذي ضاق وعجز تماما عن استيعاب ورحمة ابنين معذمين مخلصين من ابناء الشعب المستضعف، الذي تدين حركة الضباط — أول ما تدين — لتضحياتهما في سبيل نجاحها واستمرارها .

هذه البداية لحركة ١٩٥٢/٧/٢٣ ننظر لها الآن ونستطيع أن نستشف فورا : خلوها الكامل من فكر ووعي يعطي لها منطلقا حرا يحدد لخطواتها الطريق الذي تصعده متدرجة نحو غاية محددة ، أو رؤية حضارية أو فلسفية

---

* تجدر الاشارة هنا الى الافراج الصحي الذي حصل عليه عدلي لملوم بعد ذلك كما تجدر الاشارة الى أن محاكمته كانت حافلة باقطاب المحامين .

انسانية تحسم لها المواقف وتحلل لها الظواهر ، بحيث يمكن لها أن تفهم الفوارق الواضحة بين : تمرد للعمال ايجابى ، كمثل الذى شارك فيه الشهيدان « خميس » و « بقرى » وبين تمرد سلبى لاقطاعى مثل عدلى لملوم .. بحيث لا تصل الى قرار بأن تقتل أبناء الشعب وتحافظ على حياة أعدائه وتستمر فى ذلك حتى الآن .

منذ هذا الخلط الواضح فى مبدئية حركة الضباط هذه — استمرت هذه الحركة فى اتخاذ سياسة : ذبح كل الاحتمالات الواعدة ، التى يمكن أن تشرئب من بين صفوف الشعب المصرى ، لتحاسبها أو تناقشها أو تفضحها وتقول لها : مكانك ! لقد خدعنا فيك ، ولست أنت أمل مصر ، ولا صيغة خلاصها ، غير مفرقة فى هذه السياسة بين الحركة الاسلامية ، وعلى رأسها « الاخوان المسلمون » ، أو الحركة العلمانية اللا اسلامية بتياراتها المختلفة ، من شيوعيين او يساريين أو اشتراكيين أو حتى بين صفوف الاتحاد الاشتراكى فيما بعد ! هذه السياسة التى أفقدتنا — بين الكثير الذى فقدناه — مفكرين عبقريين من أعظم ما أخرجته التربة المصرية لمصر وللوطن الاسلامى وللعالم أجمع ، هما : الشهيد عبد القادر عوده (١٩٥٥) والشهيد سيد قطب

(١٩٦٦) حين نفذت فيهما « الثورة البيضاء » حكم الاعدام ظلما وجورا واعتسافا . ولقد مارس عبد الناصر هــــذا النهج ، وبلوره واجاده منذ أن انفرد بالسلطة عـــام ١٩٥٤ معتمدا معه سياسة سرابية : تغذى الأحلام ، دون أن يجد اى حلم وردى سبيله على أرض الواقع ، وتصنع منه رمز الفارس الآسر القوى أو « الجدع » مستقطبة أحلام الشعب العــربى فى مصر وخارجهـــا ، للتمركز فى شخصــــه ، مكررة على مسامعه السؤال الشرير : « من البديل ؟ » والبدائل العظيمة تسحق دوريا بالمشانق والتعذيب والاعتقـــالات التى لا تنتهى . ولقد بلغ اتجاه التمركز فى شخص عبد الناصر أوجه عام ١٩٥٦ ، عند اصداره قرار تأميم قناة السويس ، الذى صاغه بحيث يبدو هو من ورائه «الشجيع» الذى يصفع أمريكا فى مقابل صفعة من أمريكا ، حين رفض البنك الدولى تمويل مشروع السد العالى : فظهر قرار التأميم أمام الشعب العربى الفرحان : كضربة شجاعة تثأر لرفض تمويل الســد العالى : ضربة شجاعة لا يقدر عليهـــا الا « الجـــدع » عبد الناصر . وتاهت فى الصخب حقيقــة أن تأميم قنــــاة السويس : حق من حقوق الشعب المصرى * كان يجب أن يتم

---

* تجدر الاشارة هنا الى ان « تاميم قناة السويس » تضمنه البرنامج السياسى لبعض الهيئات الشعبية مثل الاخوان المسلمين والحزب الاشتراكى (احمد حسين) .

سواء قبل البنك الدولى أم رفض تمويل السد العالى أو غيره ، وان هذا الحق يجب أن يصدر بقرار ، هو جزء من خطة منهجية ، فى برنامج الثورة ويصدر باسم مصر وانسم ثورتها وليس باسم شخص محدد يملى ارادته على مصر، بدلا من أن تملى مصر عليه ارادتها .

ومع ذلك فسوف نقبل ان هذا القرار — أيا كان الأسلوب الذى صدر به — كان مكسبا للجماهير العربية وكانت ادانة الامم المتحدة للعدوان الثلاثى ، الذى حدث اثره ، كانت هذه الادانة من النتائج الايجابية ، التى كسبتها مصر ومعنويات الشعب العربى .. لكن هذه المكاسب .. ان كانت قد غفرت لعبد الناصر اسلوب اعلان قرار التأميم ، فانها لا تغفر له اخفاء حقيقة الوضع العسكرى الذى نشأ فى المنطقة اثر العدوان عن الجماهير العربية وعن الشعب المصرى — دافع الثمن دائما — فقد تصورت الجماهير أنها انتصرت مائة فى المائة ، وان الاحتلال الأجنبى قد رحل تماما ولم تعلم أى شىء عن وضع مضايق تيران ، أو شرم الشيخ ، أو الموافقة السرية من عبد الناصر للسماح للسفن الاسرائيلية بالمرور عبر المياه المصرية .

واستمر الصعود المتنامى لشخص عبد الناصر كزعيم

عربى ، رأت فيه الجمـــــاهير العربية ــ (التى تجهل معظم الحقائق وتعيش بالحلم والدفع الاعلامى) ـــ أملها المنشود ، خاصة بقرار الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ : هـذا القرار الذى تم كذلك بقرار فردى مبـاغت ومفاجىء .. ومع ذلك ساندته كل القوى الحركية العربية . وتسجل سنوات ١٩٥٩، ١٩٦٠ (تأميم الصحف فى مصر) حتى ١٩٦١ أوج الصعود لشخص عبد الناصر مجسدا ـــ بشعاراته ـــ امانى وأحلام الأمة ، خاصـة بعد ان أعلن سياسته المتجهة نحو ما أسماه : الاشتراكية العربية .. مع هذا الصعود لشخص عبد الناصر كان هناك دائما الهبوط لسعر الشعب المصرى وقيمة الفرد فيه ، حيث كانت هذه السنوات نفسها سنوات بزوغ المنهج الاجرامى وتألقه لالغاء شخصية الانسان المصرى ومحوه ، الذى ابتدعه عبد الناصر وسلطه هو وقنواته ليحول الشـــــعب المصرى المتكلم الساخر الفصيح إلى بجع مسحور ، مسلوب الارادة ، لا يعرف سوى التصفيق بأجنحته الكسيرة ، وسوى اخفاء الكلام كالسمك فى كيس منقاره : ســـنوات تأسيس منهج اشـــاعة الذل والقمع ، والارغـــام والاقتـــلاع من الجذور وجدع الأنوف وقطع الألسنة ــ (حتى ولـــو بقول النكتة التى لا يحيى بدونها المصرى) ـــ وقصـــم الظهر والهيمنة على النفس الصاعد والهابط . سنوات تقنين المنهج

البدائى الهمجى ، الذى عير به المغول والتتار : منهــــج : احراق مكتبات بكاملها ، بعد شنق مؤلفيها الأفذاذ ، حتى لا يقرأ الشعب المصرى ، ومن ورائه الشعب العربى ، الكتب التى تمد اليه طوق نجاته ـــ (الاسلام) ـــ ويغرق بدلا منها حتى اذنيه فى مؤلفات الركاكة ، والســـماجة ، والأكاديمية المزيفـــة ، والشقشقات والطقطقــات التى ترضى الزعيــم ، وتخلص دائما الى النتيجة بأنه : « ليس فى الامكان ابـــدع مما كان » وأن الفزع الوحيد ـــ الذى يجب أن يواجهه الشعب المصرى ـــ هو فزع احتمال غياب عبد الناصر فمــن يكــون البديل لهذا الفلتة المفلوتة من دورة الزمان !

وبما ان لكل عملة وجهين ، ولكل شىء ما يريح وما لايريح، فان خمر السلطة وكرباج القمع تمكنا من عزل عبد الناصر تماما حتى عن موقع قدميه ، حيث أصبح لا يرى أبعــد من انفه . وتحت وطأة منهجه الاجرامى ، فى تعبيد شعب مصر ، الذى حاول ممثلوه أن يقرروه على شعب ســـوريا : الاقليم الشمالى لجمهورية عبد الناصر العربية المتحـــدة ، كسرت الوحدة بين سوريا ومصر فى ١٩٦١ وكانت الهزيمـــة الأولى الواضحة لعبد الناصر . ومع ذلك لم يفق عبد الناصر اثر هذه الرجة العنيفة لحكمه. .بل على العكس استمر أعمى فى أسلوبه

الخطر ، الذى كبده ــ شخصيا ــ فى النهـاية هزائم اقسى وأمر .. فبدلا من أن يراجع سياساته ، حتى يقف على طبيعة الأسباب ألتى تكالبت على الوحدة ، وكبدت الجماهير العربية خيبة امل محزنة ومرة ، وقف يعلق كل الأخطاء على مشاجب خارجية ، متعاميا تماما عن أسباب مسئوليته فيها مباشرة ، معتمدا على مكانة الحب الهائلة ومستغلا لها ــ تلك المكانة ــ التى كانت تضعه فى قلوب الجماهير العربية التى لا تريد أن تتبدد أحلامها .

واحتمى عبد الناصر من هزيمته هذه ــ فى انفصـال سوريا عنه ــ خلف قوانين ١٩٦١ الاشتراكية ، التى الهت طبولها ومزاميرها وأفراحها ، الناس عن رؤية الأخطاء التى تكمن فى سياسة عبد الناصر الفردية السرابية ، ومنهجـه القمعى ، والذى أدى مجملها فيما بعد الى تعطيل كل هذه القوانين الاشتراكية عن فعاليتها المثمرة .

* * *

محاربة عبد الناصر بعبد الناصر :

كانت أعوام الستينات حتى ٥ يونيو ١٩٦٧ هى الأعوام التى بدأ الشعب المصرى يتهامس فيما بينه عن مرض مصاب به عبد الناصر بسبب الجنون .. وبالذات : جنون العظمة . وتزايد الهمس عندما توفى الدكتور انور المفتى نجاة وكان هو الطبيب الخاص لعبد الناصر الذى قيل أنه مكتشف هذا المرض عند عبد الناصر مما دفع عبد الناصر الى قتله بالسم .

ولكن المراقب لم يكن يحتاج الى تقرير من طبيب فلقد اعلن عبد الناصر عن جنونه بنفسه عندما أصدر عام ١٩٦٥ قرار باعتقال ١٨ ألف مواطن فى يوم واحد .. وفى ساعة واحدة .. هى ساعة السحر .. ارهابا للشعب .

وكانت اعتقالات ١٩٦٥ قد شملت كل تيارات الحركة الاسلامية ، وعلى رأسها « الاخوان المسلمون » . وشملت معهم كل من تأخم أو لامس أو جاء ذكره مصادفا لأى فرد من الحركة الاسلامية ولو كان نصرانيا ! كانت الحملة قاسية

ولا انسانية : غاشمة وباغية ، وأصيبت مصر بالذعر ، حتى أن البعض أوشك على حرق سجادة صلاته واخفاء مصحفه حتى لا يتهم ويزج به معتقلا مع الاخوان المسلمين .

وكانت هذه الفترة ـ كذلك ـ فترة استماتة الجماهير فى مصر ، من أجل التمسك بالمكاسب الاشتراكية ، التى أتت بها قوانين ١٩٦١ .. كان الجهد الشعبى يرمى الى تحويل هذه القوانين من مجرد شعارات « مزوقة » وتجـارة سياسية ، تمـلأ قنوات الاذاعة والتليفزيون بالمن على الشعب بمـا جلبته له السلطة السياسية : كان الجهد أن تتحول هـذه القوانين الى واقع ثورى حقيقى .. فقد أدرك قطاع الطليعة المثقفة الثورية الزيف الذى يغلف كل الشعارات الثورية التى يطرحها عبد الناصر فى خطبه وتبثها أجهزه اعلامه . لـكن الطليعة الثورية كانت ـ بالرغم من ادراكها هـذا الفارق الضخم بين المعلن والواقع ـ تدرك كذلك انها مرغمة على أن تحارب عبد الناصر بعبد الناصر .

فلقد أدرك الكثيرون بأن هناك رمزين من عبد الناصر :

١ ـ عبد النـاصر : المواثيق والقـوانين الثورية الاشتراكية ، والتى هى حبر على ورق .

٢ ــ عبد النـــاصر : جهـاز الحكم والتنفيذ الذى يقمع كل سلوك ومبادرة ثورية ، ويتصيد الثوريين حتى من بين صفوفه ، الذين يريدون تنفيذ القوانين الاشتراكية . بينمـا يحمى ويدعـم كل المخالفين والمتهربين من القوانين الاشتراكية .

وهكذا عرفت سنوات الستينات خاصة ما بعد ١٩٦١ الهوة الفاضحة بين القول والفعل . وصار هذا هو موضوع التعبير الفنى عنـد كثير من الشـعراء والكتـاب ومؤلفى المسرح الذين ظهروا ولمعوا فى تلك السـنوات الفوارة بغليان النقد ، واشارات التنبيه . لكن هذا الغليان من النقد لم يكن ليحظى من عبد الناصر « الحكم » الا بالابتسام أحيانا وبالجهامة فى أغلب الأحيان : وكانت أحوال الابتسامة مبعثها ان «محمد حسنين هيكل» قد أفهمه أن طقس النقد الى درجة معينة لا ضير منه بل على العكس ، فهو يعطى السـاحة الفنية والسياسية جاذبية ثورية ، ومسحة نضالية محببة ، مما يساعد على تنشيط « السياحة السياسية » ، وزيادة الترويج العربى والمحلى لشخص عبد الناصر .

ومن هذا الاطار كون هيكل ــ بتدعيم كامل من عبدالناصر ــ

فى مؤسسة الأهرام ما أسماه الصحفيون فى ذلك الوقت : « طبقة المخصوص » من الكتاب ، والصحفيين ، وكان أبرزهم: توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، ويوسف أدريس ، و د . حسين فوزى ، ولطفى الخولى .. الخ .. ليقودوا خط النقد « اللانقد » ويحموا تحت أجنحتهم بعض التيارات النقدية الأكثر حدة منهم . ولكنها مع ذلك لا تمس أى عصب موجع.. خارج هذا « المخصوص » .. برزت أصوات نقدية معارضة غير ملجومة بقيد من خوف أو تحفظ ، فنشأ جيل كامل طليعى كتب الشعر والقصة والرواية والمسرحية واشكال المقال السياسى المختلف : ولم يسمح لهذا الجيل بالظهور ابدا من خلال قنوات الدولة الشرعية ، فاضطر هؤلاء الكتاب أن يستنسخوا نتاجهم ليقرأ ويسمع فى دائرة محدودة تعبر عن شعب مصر وآلامه .. لكنها لاتصل الى الشعب ابدا حيث وقفت المؤسسات الفنية الضخمة حائلا بين الشعب وصوته .

هذا « النقيض » فى عالم الثقافة والاعلام — كان من اليسير على عبد الناصر « الحكم » أن يسيطر عليه أو يحتويه أو يسحقه ، دون أن تسيل نقطة دم جسدية واحدة — (رغم ان بحارا من الدماء والقتل المعنوى كان واقعا ومستمرا) —

المشكلة بدات عندما أخذت العناصر الثورية — بين

العمال والفلاحين — تمارس دورها فى حماية ما أسموه « ظهر الثورة » وحراسة « مكاسب الشعب الاشتراكية » فقد لاحظت هذه العناصر الثورية — والتى هى ١٠٠٪ «يوليوية» اى تكونت من الأحلام والطموحات التى تفجرت مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — ان السيطرة — فى كل قطاع عام أو مصنع او جمعية تعاونية — كانت للمخالفين واللصوص والمرتشين واهل الفساد كافة .. كانت السيطرة للأعداء الحقيقيين للاشتراكية المزعومة مما أدى الى واقع مشلول الفاعلية للقطاع العام والمصانع والجمعيات التعاونية : ما بين مصنع منهوب وجمعية مسروقة ومستغلة وقوانين يتم التحايل لابطالها . وبرز من بين هذه الطليعة الثورية صلاح حسين وزوجته شاهندة مقلد فى قريتهما كمشيش .. كان « صلاح حسين » كادرا ثوريا نقيا تربى فى مدرسة الاخوان المسلمين ، التى تعهدت حماسه وجيشان غضبه للحق فى سبيل الله ، وكان قد سافر وهو فى العشرين ضمن كتائب الاخوان المسلمين ، للدفاع عن أرض فلسطين عام ١٩٤٨ ، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اعتبر نفسه ضمن جنودها للتغيير والتصدى للاقطاع والفساد فى قريته كمشيش . وكان دوره هو تشجيع الفلاحين على رفع رءوسهم عالية ، مستندين الى ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مواجهة طغيان وسطوة عائلة الفقى الاقطاعية ، التى مدت

سيطرتها من خلال عملاء لها الى الجمعية التعاونية للفلاحين، والى جهاز الأمن بالمنطقة . وشهدت كمشيش عمليات الاعتقال والتربص بالفلاحين ، وضربهم ، وتعذيبهم لصالح عائلة الفقى، التى لم تتوقف عن الوشاية بصلاح حسين وزمـــــلائه لدى اصدقائها فى أجهزة ألأمن ، وبعض المسئولين فى مجلس قيادة الثورة ! وكان أن تم اعتقال صلاح حسين العديد من المرات بتهم مختلفة تتناقض مع بعضها البعض . فمن اتهام بالانتماء الى جماعة الاخوان المسلمين ، الى الاتهـــــام بتكوين خلية شيوعية فى كمشيش ! وكان صلاح حسين يحلل أسباب العسف الواقع عليه وعلى الفلاحين من قبل سلطات الأمن ، بأن هناك بعض عناصر فاسدة فى هذا الجهاز الموروث عن العهد البائد قبل الثورة . وان القيادة الثورية فى الحكم وعلى رأســـــها عبد الناصر ، لا يعرفون أمر هذا الفساد وهذا الظلم الواقع على أبناء الثورة المخلصين . وبايمان مطلق بهذه القيـــــادة وبراءة نقية أخذ صلاح حسين على عاتقه أن ينبه القيادة الثورية الحاكمة بهذه المخالفات لمبادىء الثورة ، والتى من شأنها ان توقع بين الحاكم المخلص والمحكوم المخلص كذلك .

بهذا التصور البرىء استمرت محاولات صلاح حسين وزوجته شاهندة وزملائهم لتنوير القيادة السياسية بما يحدث ضـــد الثورة فى الخفاء . وكان اكتشافهم لعمليات مريبة تقوم بهــا

الأسرة الاقطاعية « لتهريب الأرض » بالتحايل على حد الملكية الذى قرره القانون ، وضم مساحات من الأرض — لا يسمح بها القانون — لملكياتهم الخاصة . وكان لابـد أن يستميت صلاح حسين وشاهندة لكى يستطيعا أن ينبها السلطة الغافلة — (أو التى تدعى الغفلة) — الى هذه المخالفات الخطيرة . التى تقوم بها عائلة الفقى بجسارة وارهاب ، وفى قمة هذه الاستماتة الثورية للحفاظ على قوانين الثورة وحق الفلاحين ، سقط صلاح حسين فجأة برصاصات غادرة ، شـــهيدا على أرض قرية كمشيش فى ١٩٦٦/٤/٣٠ — (أربعة شهور قبل تنفيذ حكم الاعدام فى عدد من قيادات الاخوان المسلمين من بينهم الشهيد سيد قطب فى ١٩٦٦/٨/٢٠) —

وهاج الفلاحون ، وقامت شاهندة — بعد ٤٠ يوما من وضعها لطفلتها بسمة — لتقود المظاهرات فى كمشيش ضد الاقطاع ، ممثلا فى عائلة الفقى وضد عملاء الاقطاع : مدركة هى والفلاحين أن القاتل لابد وأن يكون من عائلة الفقى ، صاحبة المصلحة المعادية لمصالح الفلاحين . ورفع الفلاحون هتافا يتساءل : «قلبوها حمرا ياجمال ولإمتى بيضا يا جمال !» ونزلت عناصر سلطة عبد الناصر « الحكم » القرية ، مرتجفة من هياج الفلاحين الذين اقسموا على تمـزيق عائلة الفقى

وعملائها . كانت السلطة خائفة من هياج « الفـــلاحين »
المتجمع كما خافت من قبل فى بدايات أيامها من هياج «العمال»
المتجمع . ورغم أن هياج الفلاحين كان مستندا الى دعمـــه
للثورة وللسلطة الحاكمة ، كما كان هياج عمال كفر الدوار
من قبل فى ١٩٥٢/٨ ، الا ان السلطة كانت تعرف نفســـها
وحقيقتها أكثر من معرفة الفلاحين والعمال بها . كانت تعرف
انها سلطة فوقية لا يمكن أن تسمح ـ بالذات ـ للفلاحين
والعمال بمبادرات يمكنهم من خلالها المشاركة فى تسيير البلاد،
وفرض الحلول لمصالحهم . كانت تعرف أنها سلطة فوقية ،
ارتدت الثورية رداء مستعارا ، ويمسك بتلابيبها فرد واحد
لا يسمح لراس مستقل ، وحر وعزيز ، أن يرتفع أمامه حتى
ولو توافق شكليا معه : ولقد طار من قبل رأس الشهيد العلامة
عبد القادر عودة عام ١٩٥٥ ، لأنه اســـتطاع أن يسكت
الجماهير المتجمعة فى عابدين مارس ١٩٥٤ باشارة من يده،
بعد أن عجز عن ذلك الواقف الى جواره * : فلقد عزم

---

* روايات عديدة اوردت جريمة قتل الشهيد عبد القادر عودة ظلما
ـ فوق ظلم ـ بقرار من عبد الناصر شخصيا منها واحدة سمعتها شخصيا
من الأستاذ محمد عودة الكاتب السياسى الناصرى واخرى من الاســتاذ
فتحى رضوان ـ اطال الله عمره ومكنه من تسجيل شهادته بنفسه فى هذه =

عبد الناصر منذ بداية انفراده بالحكم على ألا يسمح لكائن من
كان أن يرتفع فى مصر على أيدى الجماهير أو أن تفرز الجماهير
من ذاتها باختيارها من تراه ممثلا لها : وهذا الذى يدفعنى الى
القول بأن اغتيال صلاح حسين لم يكن فى واقعه الا تنفيذا
لحكم بالاعدام ، صدر عليه من قبل السلطة التى أزعجها نشاطه

= الواقعة للتاريخ – ثم أخيرا شهادة الاستاذ أحمد حسين رحمه الله فى مقاله الاخير قبل وفاته بايام فى جريدة الشعب ١٩٨٢/٩/٧ ص ٦ ، والتى – لأهمية دلالتها فى اطار هذا التحليل – انقل عنها هذه السطور :

« نحن الان فى عام ١٩٥٥ . افرج عنى وتنازلت عن القضية ، ولكننى ظللت مجروحا فلم يحدث فى كل تاريخى القضائى ان اهنت كما اهنت واعتدى على كما اعتدى على فى ظل الثورة ...

اطلق الرصاص فى ميدان المنشية على جمال عبد الناصر وكان الضارب شخصا يدعى عبد اللطيف من الاخوان المسلمين : وعلى الرغم من ان عبد الناصر نجا فقد ظن انه اصيب فى مقتل وراح يثرثر بكلام فارغ يكشف عما فى عقله الباطن : واخذ يخاطب الشعب بقوله : (غرست فيكم العزة والكرامة !) .

واستغل هذا الحادث للبطش بالاخوان المسلمين وتالفت محكمة خاصة لمحاكمتهم وقضت على زعمائهم بعقوبات قاسية وعلى الرغم من ان واحدا منهم وهو عبد القادر عودة كان مسجونا قبل وقوع الحادث فلم ينج من عقوبة الاعدام . وفزعت من هول المحاكمة .. ومن فظاعة أحكامها وأدركت اننا اصبحنا نعيش فى ظل عهد جديد : حيث لا قانون ولا حدود وانما ارادة الحاكم ومطلق مشيئته فقررت أن اهاجر من مصر ، واذ كان الوقت =

ـ هو موسم العمرة فقد قررت ان اسافر السعودية طلبا للعمرة ومن السعودية اختار البلد الذى أتوجه اليه . وامعانا فى التمويه والتعمية طلبت مقابلة عبد الناصر لاستئذانه فى السفر وبالرغم من اننى كنت مقررا ان لا اتحدث فى غير التحيات والسلامات والمجاملات العادية ، فقد كان هو الذى دفعنى للكلام ، حيث لم اتمالك نفسى عن نقده . سألني ما رايك فى الاخوان المسلمين قلت : انك تعرف رايى ـ اقصد الموقف الأخير ـ ووجدتنى اندفع بلا وعى اندد باعدام عبد القادر عودة ـ قلت لقد كان باستطاعتك ان توفر ٥٠ ٪ من النقد الذى وجه اليك لو وفرت حياة انسان واحد . واسرع يقول : تقصد عبد القادر عودة ؟ قلت : نعم ، فان عبد القادر عودة برىء من الحادث الذى وقع عليك ، كما انه برىء من اعمال العنف . ومضيت اترافع فى حماسة : وهناك ثلاثة ادلة يكفى كل واحد منها لتبرئة عبد القادر عودة ، وقد ثبتت كلها امام المحكمة :

الاول : انه كان سجينا قبل وقوع الحادث بعدة اسابيع .

الثانى : انه اقترح من بعض الأعضاء القيام بمظاهرة مسلحة فانكر عبد القادر عودة هذا الاقتراح بشدة .

والثالث : ان البعض اقترح القيام بمظاهرة سلمية فرفض عبد القادر عودة القيام باية مظاهرات .

واصغى عبد الناصر لمرافعتى ثم قال :

ـ والله يا احمـــد نحن لم ننظر للأمر من الناحية القـــانونية ، بل نظرنا اليه من الناحية السياسية .

غادرت مصر الى السعودية ، وانا لا اكاد اصدق اننى هربت من الجحيم الذى اصبح فيـــه الابرياء يعـــدمون لاسباب سياسية ... »

انتهى المقتطف .

وصـــــدقه وجماهيريته الراسخة بين أبناء قريته ، ومما يؤكد هذا القول ما ذكره أنور السادات كثيرا فى خطبه ثم فى كتابه « البحث عن الذات » من أن عبد الناصر امتعض حين مر على كمشيش أثناء زيارة وقرأ لافتة تقول : « ثورة كمشيش تحيى الثورة الأم ثورة ٢٣ يوليو ! » وقال عبد الناصر : « الله .. هو فيه ثورة تانية فى مصر واحنا مش عارفين والا ايه » ! ؟

* * *

أزاء هياج الفلاحين فى كمشيش ــ لمقتل زعيمهم صلاح حسين ــ تحركت خطة عبد الناصر المعتادة فى تمييع المواقف الساخنة . . فلم يكن بوسع السلطة أن تفعل بالفلاحين عام١٩٦٦ ما فعلته بعمال كفر الدوار ١٩٥٢/٨ ولذلك كان عليها أن تستبدل الوجه الجهم فى مواجهة العمال ، بالابتسامة الصفراء فى مواجهة الفلاحين : وبدأت الخطة باحتضان قضية مقتـــل الشهيد صلاح حسين ، على أساس أنهـــا قضية تستوجب تحقيقا تتبناه الدولة ، لمعاقبة الاقطاع الذى بدأ يتحرك ــ (هكذا ! ولم يجد أحد الفرصة ليتساءل وكيف تركتم اقطاعا به قوة للتحرك ولقتل العناصر الثورية بعد أربعة عشر عاما من حكم تسمونه « ثورة ! ») ــ واستفادة من منطـــق :

« اقتل القتيل وامش فى جنازته » ومبدأ « أقتل الجميع بحجر واحـــد » واحتياجا لـ « زار » صاخب تتوه فيه جرائم القتل ــ الممهد لها والتالية ــ التى تقرر تنفيذها فى زعماء المقاومة الاسلامية وعلى رأسهم الشهيد سيد قطب فى ١٩٦٦/٨/٢٠ : وجدت السلطة ضالتها فى قضية كمشيش التى تفجرت مع عيد العمال ١٩٦٦/٥/١ .

صرخ الفلاحون : « الاقطاع هو القاتل : الويل له » ؛ فالتقطت السلطة هذه الفرصة الذهبية لاخفاء جريمتهـــا ومسئوليتها عن قتل الشهيد صلاح حسين : الجريمة التى نفذتها وحدها ــ ربما ــ أو نفذتها بالاتفاق مع عائلة الفقى ــ ربما كذلك ــ حيث التقت مصالح السلطة ومصالح الاقطاع، فى الخلاص من الشاب الشريف ، المتألق بحب وثقة الفلاحين، الشهيد صلاح حسين .

وهكذا ، ومع الاقرار بجرائم عائلة الفقى وتاريخهـــا الطويل الأسود فى العمالة للمستعمرين الانجليز ، وقتلهم واذلالهم للفلاحين المعدمين ، الا أن عائلة الفقى ما كان يمكنها أن تنقض على أحد الا بايعاز وتواطؤ مع سلطة عبد الناصر، ولرؤية ضوء الموافقة الأخضر ، يحمله اليها صديقها الحميم ومندوب عبد الناصر لديها : « محمد انور السادات » .

وقررت سلطة عبد الناصر ان تصرخ ــ لبعض الوقت ــ مع الفلاحين : « الاقطاعى هو القاتل : الويل لعائلة الفقى »: فهى على كل حال لن تخسر شيئا .. بل هى الكاسبة فى كل الأحوال ومكاسبها هى :

١ ــ التخلص من صلاح حسين : كزعيم محتمل خطره بين الفلاحين .

٢ ــ ارهاب الاقطاع وعائلة الفقى وابتزازهم لعائد منافع شخصية ، والمزايدة بهم فى الشعارات الطنانة المفيدة لواجهة الاعلام المزيف الثورية ــ (لم يتم اعدام احد من عائلة الفقى وحكمت المحكمة ــ كما سنبين ــ ببراءتهم مما خول لهم حقوق التعويضات الهائلة التى دفعتها لهم السلطة نفسها فيما بعد ــ فى حكم السادات ــ مقابل الاضرار والتعذيب الذى لحقهم : فكأن السلطة كانت فى الواقع تؤجرهم « ملطشة » لبعض الوقت عازمة فى ضميرها ان تدفع لهم أجر ذلك فيما بعد !) .

٣ ــ اقامة حفلة زار ضخمة يتطوح فيها الجميع : صارخين بلعن الاقطاع ، فيتم الهاب التعلق « بالشجيع » عبد الناصر ، الذى لا بأس أن يذهب فداء له أى شىء وأى

احد ولو كان عالما فذا لا يعوض مثل الشهيد سيد قطب ــ روحى فداه ــ

ونجحت الخطة اللااخلاقية لسلطة عبد النـــــاصر .. أجلت الخطب والبيانات والحملة الاعلامية ضد الرجعيـــــة والاقطاع .. الخ غضب الفلاحين الفورى وحركتهم العفوية وغضب شاهندة الثورى العاصف : وتم الاعلان عن محاكمة عسكرية لعائلة الفقى ، بعد القبض عليهم ، وممارسة الهواية الناصرية عليهم الا وهى هواية : « التعذيب الفاحش » الذى كان يتم ويمارس على كافة التيارات السياسية الملقاة خلف سجون عبد الناصر الشهيرة .

بعد الاعلان عن المحاكمة العسكرية : توقف مهرجان حفلة الزار ضد الاقطاع ، وفتر بعد أن استنفدت أغراضـــه الدعائية والسياحية السياسية ، ثم تطور الموقف الى نتيجة صعق لها الفلاحون : بعد أن تأجلت المحاكمة العسكرية عامين من ١٩٦٦ الى ١٩٦٨ ، قرر عبد الناصر تحويلها الى قضية عادية تنظرها محاكم عادية .

ونظرت محكمة صادق المهدى بدار القضاء العـــــالى المهزلة ! لم تعد القضية محاكمة عائلة الفقى أو الاقطاع ،

بل تحولت فى صيف ١٩٦٨ الى محاكمة ظالمة جائزة الشهيد المقتول صلاح حسين : وبدأنا نشاهد قرارا جديداً باعدام صلاح حسين .. لكنه كان بشكل مختلف : تشويه صورته الوضيئة .. ما بين صورة فارض الاتاوات على الفلاحين.. البلطجى .. المنحل .. الى صورة التافه ، المغرور ، فاقد القيمة ، المدعى الى صورة المتطرف الدينى ، والشيوعى الملحد ، الذى حول كمشيش الى بؤرة للعمالة للاتحاد السوفييتى ! ولم تكتف المحاولة الاجرامية بهذا التشويه الحاقد الموتور بل قررت أن تلوح بتهديد لزوجته شاهندة ، أن « مجرور » اجهزة الأمن والدعاية جاهز بنشر ظلال وشبهات الوحل حول عرضها كامرأة !

ففى أوج ما بعد عام الهزيمة المرة ٦ / ٦٧ وذلك فى ٥ / ٦٨ : وقفت « شاهندة مقلد » أرملة الشهيد صلاح حسين مع الفلاحين فى دار القضاء العالى ، غير مسموح لهم بعرض قضية مقتل شهيدهم ، بل تولت النيابة عرض القضية — بفتور — بصفتها ممثلة للدعوى التى أقامتها « الدولة » ضد عائلة الفقى . وفى المقابل وقف المتهمون ممثلين بهيئة دفاع من كبار عتاولة مهنة المحاماة ، الذين يمثلون بواقعهم الفكرى والاجتماعى العقلية الاستكبارية

بأبشع أحوالها ، حين تطمح لتكون من الاقطاع . وكان من المعروف ان كل محام قد تسلم من العائلة الاقطاعية ما لا يقل عن خمسة آلاف جنيه : ووقفت هيئة الدفاع ــ بعقليتها هذه، السادرة فى الرجعية والتخلف وارتزاقها الواضح من العائلة الاقطاعية ــ وقفت تسب وتلعن كل أسس الفكر الاشتراكى ــ (المفروض أنه كان شعار الدولة) ــ وتسخر مما يسمى « الاشتراكية العربية » ــ (وهجومها هذا بالطبع لم يكن لصالح الدعوة الى الاسلام وانما لصالح الجشع والطمع) ــ وتدافع عن حق الاقطاع فى اقتطاع ما يشاء من أرض وثروة .

ــ (وما زلت أذكر المحامى الذى وقف يصرخ : « ملك الملوك اذا وهب ... لا تسألن عن السبب » فى معرض ارساء مبدأ أحقية الاقطاعى المستكبر فى سرقة حق المستضعفين من الفلاحين) ــ وظلت هيئة الدفاع تندد بالشهيد صلاح حسين ــ (القتيل الغائب الذى لا يملك الدفاع عن نفسه) ــ وتنعته بـ « الفوضوى » و « البلطجى » و « الحاقد » وتشير من بعيد وقريب الى ما يمكن أن يوحى بأن هناك ما يشين شاهندة فى شرفها كامرأة !

وكان هناك تنبيه علينا فى الصحف الا نتابع هذه المحاكمة كصحفيين . ومنعت الرقابة نشر اى شىء عن المحاكمة

او القضية ، وكان هناك أمر بحذف كلمة « **كمشيش** » لـــو جاءت عرضا فى قصيدة او قصة او مسرحية أو مقال ! وذلك حتى لا تتحول القرية وشهيدها الى ملحمـــــه وطنيـــــة تترسخ فى مشاعر المواطنين ! ولم يكن فى المحكمة شهود عيان من الصحفيين الا ثلاثة :

١ ـــ لطفى حسونة : مندوب أخبار اليوم وموالى للمفتى .

٢ ـــ محمد عودة : الكاتب السياسى الناصرى ومفروض أنه مؤيد للفلاحين ومتعاطف مع موقف شاهندة ، الا انه كان موفدا من قبل قنوات السلطة الناصرية ، لينفذ تعليماتها فى مص غضب الفلاحين وشاهندة والسيطرة عليهم ، بتوجيـــه النصائح والاقتراحات الكفيلة باحباط انفعالاتهم ، حتى لا يفلت زمامهم فى قاعة المحكمة او خارجها .

٣ ـــ وكنت أنا الصحفية الثالثة ـــ (حاضرة بقرارى الذاتى ، بصفتى ناقدة مسرح ! ، لأكون شاهدة للتـــاريخ ، علنى أتمكن ، فى يوم من الأيام ، أن اقول لأبناء امتى الحقيقة التى رأيتها) ـــ كنت أجلس مذهولة ومندهشة لكل ما يدور ولا اكاد أصدق أن هذا يحدث فى ظل حكم ادعى تحمل مسئولية القصاص للشهيد المقتول ، ويرفع الاشتراكية وحق الفلاحين

شعارا من شعارات سياساته الرئيسية .. وكنت أقول فى نفسى : لو ان هذا حدث تحت ظل حكم آخر ، لقال عباد وعبيد عبد الناصر : « لو كان عبد الناصر موجودا او على قيد الحياة لما حدث هذا ! »

وها هو يحدث وعبد الناصر على رأس الحكم وعلى قيد الحياة ، متباهيا يظهر فى التليفزيون يهدد الشعب ، بعد مظاهرات الطلبة للاحتجاج على هزيمة ٦٧ فى مطلع ١٩٦٨ : « أنا عندما أردت ــ اعتقلت ١٨ الف مواطن فى يوم واحد » ! ــ مشيرا الى مذبحة الاعتقالات فى الصيف الأسود ١٩٦٥ .

وقتها نبهت شاهندة : ان ما يحدث ليس صدفة ، وليس معبرا عن هيئة دفاع مغرضة ورجعية فقط .. ولكن الأمر اخطر .. وقلت لها اننى أكاد أصل حد اليقين ، ان سلطة عبدالناصر طرف له مصلحة فى اغتيال صلاح حسين ، والا لما سمح للأمور ان تصل الى هذا المدى ، بحيث صار القتيل هو الجانى وصار القتلة من المجنى عليهم .

وصدر ــ ما توقعته ــ من قرار للمحكمة ببراءة الاقطاعى العتيد وتم التنويه بأن القضية قضية ثأر عادية ، وليس لها

علاقة بالسياسة ، ولا تمثل هجمة للاقطـــاع على الثوره والقوانين الاشتراكية !

وصعقت شاهندة وصعق الفلاحون وقرروا الخروج بمسيرة احتجاج . وهنا تدخل الاستاذ محمد عـــودة ليؤدى دوره الموكل اليه بتبنى غضب الفلاحين وثورة شـــاهندة واحتوائهما ، تمهيدا لتبديدهما ادراج الرياح : وفعلا نصــح شاهندة بكتابة نص احتجاج على هذه المحاكمة وتبرئة الاقطاع، يوقع عليه المثقفون تضامنا معها ، وترفع لعبد الناصر .. ورغم أن شاهندة كانت توافقنى قلبيا على رفض الانصياع لنصائح الاستاذ محمد عودة ، ودائرة المثقفين ــ الثوريين مع وقف التنفيذ ــ من نوعيته : الا أن شاهندة كانت تعرف أن قدراتها محدودة هى وفلاحيها : ولم تكن بقدرة التصدى المفرد لسلطة عبد الناصر وأجهزة أمنه ، التى تتشهى ذبحها ــ (وعلى قمتها وزير الداخلية شعراوى جمعة) وكان محتوما على شاهندة أن تواصل مثل كل كوادر الطليعة الثورية الشريفة من ابناء الشعب المصرى المقهور .. ان تواصل الحرب ضد عبد الناصر من خلال عبد الناصر فى غياب حركة اسلامية تشد الجميع الى نورها .

كان الموقف واضحا ــ لدى كل الصادقين من المثقفين الوطنيين الأحرار ــ بأنهم يقفون فى موقف حرج بين :

١ ــ تيار استكبارى رجعى يسفر عن مفهومات رجعية متخلفة ويضمر الكراهية والمعارضة لعبد الناصر على أساس أنه يحقق الاشتراكية التى هى ضد مصالحهم .. وهم يكرهون الاشتراكية ليس حبا فى الاسلام ، ولكن لأنهـــا تفـــرض الحراسات على اللصوص من المستكبرين ، لصالح الفقـــراء من المستضـعفين ــ (وهذا هو التيار الذى استمر وساد السلطة المصرية تحت حكم محمد أنور السادات ، حيث كان السادات أحد ممثلى هذا التيار .. بل ركيزته الأساسية فترة حـــكم عبد الناصر .. وهو مع صفته هذه كان محل ثقة ورضاء كامل من قبل عبد الناصر ، الذى صفى كل أصدقائه وزملائه من مجلس قيادة الثورة ــ على مدار سنوات حكمـــه ــ وكان السادات من القلائل ، الذين ظلوا الى النهاية متمتعين بثقة عبد الناصر ، سالمين من غدره) .

٢ ــ تيار ثورى انتهازى : يتكلم بلغة الثوار ، ويستخدم اصطلاحاتهم ، ويصفق للاشتراكية ــ (حيث يتفق مع الرجعية فى ترويج أكذوبة أن عبد الناصر حقق الاشتراكية والعـــدالة

الاجتماعية للشعب المصرى المغدور به . والفارق أن الرجعية كانت حزينة لذلك ، وهم كانوا سعداء والواقع أن كلاهما كان متوهما وكاذبا فى سبب حزنه وسعادته ، لأن الواقع الذى كان يعيشه الجميع أثبت أن اشتراكية عبد الناصر مزعومة ؛ أو انها كانت عاطلة التنفيذ والجدوى ، الى حد انتفائها وغيابها كلية) — وكان هذا التيار بانتهازيته يجمع مكاسب مادية هائلة ، يسوغها لنفسه بمقولة : « الاشتراكية لا تعنى الفقر .. الاشتراكية من أجل حياة أفضل » ! وكانت وظيفته الأساسية أن يزور حقيقة عبد الناصر ، ويجعل منه وثنا معبودا له خوار ، ويفلسف كل أخطائه ويبررها ، ويدافع عنها أمام الرأى العام العربى والعالمى ، ويقوم بدور تشويه وسحق مجموعة المثقفين الشرفاء من الحركة الاسلامية والعلمانية على السواء ، ويتهمهم بالتطرف والطفولة الثورية والارهاب والشغب ! — (ونجد امتداد منهج هؤلاء وبعض عناصرهم يتمثل فى النوعيات التى تقود أحزاب وصحف ومؤتمرات المعارضة العلمانية حاليا فى عصر ما بعد السادات !) —

كان هذا التيار يهندسه ويقوده الصحفى الأوحد « محمد حسنين هيكل » وتحت أبطه مساعده «لطفى الخولى» — قبل أن يغدر به — بالاضافة الى ثقلين ثقافيين رئيسيين

هما : توفيق الحكيم ونجيب محفوظ : (هاتان الشخصيتان الزئبقيتان اللتان اثبتتا قدرة شيطانية رهيبة فى التقفز واللعب على حبال كل التيارات بحيث أمكن لهما الامتداد والاستمرار فى مكانتهما الراسخة العالية لدى كل سلطة مهما تغيرت الأقنعة واللغة واللهجة والصوت) . وكان اسم كل من هؤلاء يحتكر تحت امرته وحمايته طابورا من أسماء عديدة ـ (معظمهـا ناصرية وماركسية وتوليفة الماركسـية الناصرية والناصرية الماركسية) ـ وكان كثير من تلك الأسماء على علاقة عمل وثيقة مع وزير الداخلية آنذاك وهذه الأسماء انقسمت فى عهد السادات الى قسمين :

١ ـ جزء : رضى السادات أن يضمه الى مؤيديه مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوى ... الخ ، مع ركائزه الثقافية الأساسية برئاسة يوسف السباعى .

٢ ـ الجزء الآخر : رفض السادات أن يضـمه الى مجموعه أو طقم خدامه : مثل لطفى الخولى وجماعته رغم الكتاب الذى الفه لطفى الخولى : « مدرسة السادات السياسية » . وظل الخولى وجماعته يتزلفون للسادات الى آخر لحظـة

ويسمون حكومته : « حكومة وطنية » لابد من دعمها وكانوا يهاجمون حركة الطلبة المعارضة التى تصدت لزيف شعارات السادات الديمقراطية منذ البداية .. ولم تنقلب هذه الجماعة على السادات الا حين تأكد اصراره على رفضهم حين اغلق مجلتهم « الطليعة » و « الكاتب » وعوق مجالات رزقهم ونشرهم .. هنا بدعوا يعزفون ألحان المعارضة العالية جدا حتى أنها صارت أعلى الأصوات جميعا !

ـ (كان شعراوى جمعة وزير داخلية من نوع عجيب : فعلاقاته بالمثقفين والصحفيين والكتاب كانت أقوى واكبر من علاقاته بعساكره ومخبريه وضباطه .. ليس ذلك بسبب أنه شرطى مثقف ولكن لأنه شرطى قمع ذكى عرف ـ بعد قمع المقاومة الاسلامية ـ من أين يمكن أن تهب الريح الخطرة وكان يرعى بنفسه بعض الشعراء والكتاب الشباب ـ منهم عبد الرحمن الأبنودى الذى افاده فيما بعد فى محاربة الشاعر احمد فؤاد نجم والشيخ امام .وجعل شعراوى جمعة من نفسه قطبا أدبيا فتولى رئاسة مؤتمر الأدباء الشباب الذى عقد بالزقازيق عام ١٩٦٩ وكانت ظاهرة غريبة عجيبة تساءل فيها الجميع : لماذا يرأس وزير الداخلية مؤتمرا لأدب الشباب؟ وما مهمة وزير الثقافة اذن ؟

والغريب أن يوسف السباعى كان يجلس الى جواره فى هذا المؤتمر ودودا مبتسما متشرفا برئاسة وزير الداخلية رغم أنه كان ــ فيما بعد فى زمن السادات بعد عامين فقط ــ ممن مزقوا وجناتهم لطما ، وحزنا من سنوات القهــر التى مارسها شعراوى جمعة ومراكز القوى .

بين أشواك هذين التيارين الرهيبين ، وقفت العناصر الثورية الصادقة والشريفة موقفا صعبا : كان عليها أن تسلك طريقها وتؤدى مهمتها فى نقد وفضح زيف ودجل سياســة عبد الناصر السرابية من دون أن تقع فيما يشمت الرجعية الاســتكبارية ويشــجعها ، ومن دون أن تعطيهــا ما يمكن أن تســتغله لضرب الطموح الثــورى للفقــراء المستضعفين من أبناء الشعب المصرى ، والطموح الثورى لتحرير مستضعفى المنطقة من الاستعمار والصــهيونية من الوجود الامريكى الاسرائيلى المتطفل ، للسيطرة والهيمنة على مقدرات هؤلاء المستضعفين من شعوب المنطقــة بالقــوة والاغتصاب والمؤامرات الغادرة . كان عليها ان تنجح فى ذلك ، ومن دون أن تقع كذلك فى تحالف مع نغمة الطبل والزمر والخطابة الجوفاء ، التى يعزفها الانتهازيون فى صــلاتهم الوثنية لعبــد الناصر . وكانت المشكلة أن هــذه العناصر

الثورية الشريفة كانت — ولا تزال — مشـــتتة لا يعرف بعضها البعض الا فى النادر ، وكانت تدرك عزلتها ووحشتها أمام التيار القوى الغالب للمثقفين الانتهازيين : خاصة التيار الذى يحتضنه ويشرف عليه محمد حسنين هيكل — ظـل هذا الموقف يواجه المعارضة الصادقة للسادات بعد موت عبد الناصر : اذ وجدت المعارضة الصادقة للسادات نفسها بين أظافر السادات الشرسة التى نهشت عبد الناصر لأهداف خاصة وبين تيار الوثنيين والانتهازيين — الذين رفضــــهم الســـادات — ورفع هـــذا التيار وثن عبد النـــاصر — حتى بعد هــــلاكه — لابتزاز السادات مستمرا فى محاولة ارهاق مصر بزجها فى تلك الحلقة المفرغة : السادات — عبد الناصر أو عبد الناصر — السادات .

وكانت العناصر الثورية الصادقة تستمد موقفهـــا — اغلب الأحوال — من مبدئيها الأخـــلاقية الذاتية ، وكرامتهـــا الانسانية . وكان بعضها له تماس مع الماركسية ، وبعضها له تماس مع مواثيق ثورة يوليو ، ويظن انه بالامكان انقاذ عبد الناصر من انحرافاته ، لو اتاح الفرصة والأمان لكى يستمع الى الملاحظات المحبة والمخلصة : وكان بعضهـــــا عناصر وطنية اسلامية — خارج الاخوان المسلمين — تعارض

الماركسية باعتبارها فكرا يمينيا يعوق مسار الثورة الأصيلة الطامحة الى التحرير بمنطلقات العروبة والاسلام ، وكانت ترى عبد الناصر عائقا ضخما فى المسار الصحى للثورة ، اذ أنه يزحم الساحة ولا يزيدها الا خبالا .

قبل هزيمة يونيو — حزيران ١٩٦٧ كانت الساحة المصرية تنضج بكل العوامل التى من شأنها أن تقود الى هزيمة ! .

ولم يكن هذا الحدس أو هذا الفهم خافيا على أحد من المصريين ، حتى أحد الشعراء الشباب — « محمد ابراهيم أبو سنة » — نشر فى مجلة تصدر ببيروت عام ٦٥ — ٦٦ قصيدة بعنوان « غزاة مدينتنا » يحكى فيها عن مدينته التى دمرت ونهبت وينهيها بقوله : « كنا نحن الأعداء : كنا نحن غزاة مدينتنا ! » .

كان عبد الناصر يعلن فى المؤتمر الصحفى العالمى عن صواريخ القاهر والظافر وكيف أنها بقوة تصل الى مدى يلامس « جنوب لبنان » — — (وكان يضحك قاصدا الغمز الى ما يعنيه بجنوب لبنان هو أرض فلسطين المحتلة بالكيان الصهيونى) — وكانت شاشات التلفزيون تعكس ثقته بنفسه

وتعكس العيون القريرة من رجالاته فى الأمن وفى الفكر والفن والثقافة المعجبة به ، المدلهة فى حبه .

وكان الشعب رغم كل أزماته وكل تضحياته وكل جوعه وقهره وآلام أمراضه فرحا مؤمنا بأن عبد الناصر — كما أفهموه بالطبل والزمر فى الصحف والاذاعات — لاشك قادر على هزيمة الكيان الاسرائيلى ودخول تل أبيب وكان يهتف :

« عبد الناصر يا حبيب   بكره ندخل تل أبيب »

وكان هذا الشعب المخلص الفقير على أستعداد أن يتطوع حتى بجلده — بعد أن يفقد جلبابه الوحيد — فى سبيل الحرب المصيرية : ولم يكن على استعداد مطلقا ان يقول له احد ان آخر الصبر وشد الأحزمة على البطون من أجل المعركة يمكن أن يكون بالنهاية سرابا ومذبحة فى صحراء سيناء ! .

وللأسف حدث آخر ما كان يريده الشعب المصرى وحدث ما توقعته زرقاء اليمامة الطليعة الواعية التى رأت وتكلمت وحذرت ففقئوا عينيها .

* * *

مع اعلان الهزيمة النكراء باسم « النكسة » أعلن عبد الناصر تنحيته ١٩٦٧/٦/٩ . وتصور الشعب الطيب أن « قوى خارجية » أو « قوى داخلية » قد أرغمته على هذا القرار فكان أن هبت الجماهير برد فعل قوى أخذ شكل الخروج الى الطرقات بلا ترتيب مسبق — ترفض ما يمكن ان يكون اذلالا لسيادتها . والتفوا يساندون عبد الناصر « الرمز » ويستنقذون فيه كبرياءهم القومى وعنادهم الصلب تماما كما ساندوه من قبل فى أزمة ١٩٥٦ . واعلنوا فى هتافاتهم « بالروح بالدم حنكمل المشوار » قاصدين مشوار الجهاد ضد الكيان الصهيونى حتى التحرير والنصر . وكان موقف الشعب العظيم — رغم دماء أولاده التى لم تجف بعد على رمال سيناء — كان أكبر وأعمق من أن يستوعبه عبد الناصر بمنهجه الذاتى . وككل شىء عظيم قدمه الشعب المصرى واستغله عبد الناصر لنفسه ، نزلت مظاهرات ١٩٦٧/٦/١٠ من الجماعات الموجهة من السلطة محرفة للشعار التلقائى

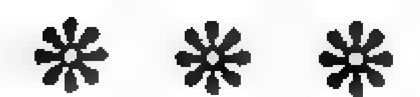
---

* تجدر الاشارة هنا الى ان عبد الناصر عين خليفة له شخصا كريها هو زكريا محيى الدين ، وكأنه كان يتنحى من ناحية ويدعو الناس الى التمسك به من ناحية أخرى .

المجيد الذى اعلنته روح الشعب الفدائية وتم تشويهه الى :
« بالروح والدم نفديك يا جمال » ! .

وشتان بين منهج يقول بالروح والدم فداء للمعركة ، ومنهج « وثنى » يكرس الروح والدم من أجل « فرد » : ولكنها كانت العقلية الناصرية المريضة بعبادة الفرد « والفردية » التى تبدت بجلاء فى شخصية عبد الناصر « الرجل » وفى جماعته المسماه بـ « الناصريين » فى زمانه وحتى الآن : عقلية تكريس « الكل » من اجل « الفرد » او « الجزء » بدلا من تكريس « الفرد » و « الجزء » من أجل « الكل » : وهذا ما يفسر لنا لماذا سمى أتباع سياسة عبد الناصر انفسهم بـ « الناصريين » ــ مناصرة للرجل ــ ولم يسموا انفسهم مثلا بـ « اليوليويين » نسبة الى ثورة « ٢٣ يوليو ١٩٥٢ » . وهذا أيضا ما يفسر لنا فرحتهم كلما شاهدوا صورة لزعيمهم أو سمعوا له صوتا ، ويثيرون القضايا من اجل تسمية « بحيرة السد العالى » بهذا الاسم الكلى الراقى بدلا من الاسم الذاتى السارق لجهد الشعب المصرى : « بحيرة ناصر » . العقلية الناصرية التافهـــة السطحية التى ما أن تسيطر على اذاعة او بوق اعلامى حتى تسارع الى اغراقه بركام الأغنيات المخجلة عن : « البطل اللى جابه القدر » و « عرفونى وقالوا لى انت من بلد ناصر » و « الفارس المارد العربى .. جمال » ... الخ .

وتشـهد الخلفية الفكرية لهذه الأغنيات كلها على تصور رجعى بدائى : حيث أن البطل لم يأت به الشـعب ولم يبلوره من خـــلا تضحيـــاته لا : بـــل « جـــاء به القـــدر » وبدلا من أن تكون مصـــــــر هى « الكل » الذى ننتسب جميعا اليها ومعنا عبد الناصر : صار العكس : وصرنا جميعا ومعنا مصر والأمة العربية : ننتسب الى « فرد » « مارد » « فارس » « واحد » اسمه جمال عبد الناصر ! ولا حـــول ولا قوة الا بالله .



مرحلة ما بعد الهزيمة :

عاش عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و ٢٣ يوما حتى هلاكه فى ١٩٧٠/٩/٢٨ : سما او غما : الله أعلم .

حين ننظر الى هذه الفترة الآن ، لا نستطيع ان نهرب من مواجهة حقيقة لم تخف على احد ــ (وان أخذت أسماء عديدة) ــ وهى : أن عبد الناصر كان يتحلل تدريجيا وينكمش ، واخذت أوراق لعبة السياسة تتكشف بجلاء ، حتى لمحبيه والباقين على حماسهم لشخصه . ومع احساسه بفقدان هيبته وتأثيره الأول ــ خاصة عندما قامت أول مظاهرات معارضة له فى أوائل عام ١٩٦٨ ، بعد صدور أحكام ما تعرف بقضية الطيران ــ لم يجد عبد الناصر حرجا فى أن يدين اسلوب المظاهرات بشكل مطلق ، حتى تلك المظاهرات الوطنية التى شارك فيها فى الثلاثينات فى الاسكندرية ، والتى طالما افتخر بها كدليل على نضاله الوطنى منذ صباه . وظهر عبد الناصر فى التلفزيون يلقى خطابا غاضبا على الأمة ويعالج

موضوع مظاهرة الطلبة ، بأسلوب ناظر مدرسة يمسك بالعصا وان كان يؤجل استعمالها لعدم ثقته فى قوته وتأرجح مركزه وتكلم عن الطلبة على أساس أنهم : « شوية عيـــال مش فاهمين حاجة » . وقال انه لن يعاقب ولن يعتقل أحـدا منهم لكنه سيتركهم لآبائهم يؤدبونهم — (على أساس أن الآباء قد ذاقوا بطشه ولم ينسوه بعد !) — ولوح — بلا خجل — لماضيه العريق فى اصدار قرارات الاعتقال ظلما وبلا روية قائلا : « أنا كنت اقدر احبسهم .. أنا فى ١٩٦٥ أصدرت قرار باعتقال ١٨ الف فى يوم واحد ! » — (متناسيا أن تراكمات هذه المظالم هى التى أدت الى هزيمته وفشله) .

وأدرك غالبية المثقفين الشرفاء : أن عبد الناصر لم يتسامح مع هذه المظاهرات المحتجة لطيبة قلبه ، ولكن لأنه فعلا لم يعد قادرا على أن يقوم بدور « الوحش الكاسر » ضد الشعب المصرى : هذا الدور الذى أجاد أداءه قبل أن تسقط آخر اوراقه وتكتمل هزيمته بفضيحة حرب الأيام الستة ، التى لم يخضها فى ١٩٦٧/٦/٥ . وكان على عبد الناصر والوضع يتدهور أن يلجأ الى تكتيكه التقليدى وهو : أن يشعل البلد فى ضجة بلا طحن او طحين . وبدأت هذه الضجة الفارغة بانزال قيادات حزبه السرى لكى تقيم يوميا ندوات لمناقشة

الاستعدادات للمعركة والاجـابة على تساؤلات الناس :
لماذا لا نكون جيشا شعبيا ونمارس حرب العصابات تنطلق عبر الضفة الأخرى من القناة ، ولا تعطى المحتل فرصة يهدأ فتعوق استقراره حتى ننتهى من اعادة بناء الجيش ؟ ــ ــ (مثل الدور الذى كان يقوم به الشعب المصرى ضد معسكرات الانجليز وضد تواجدهم فى القناة سنوات مطلع الخمسينات قبل الثورة) .

وحضرت وقتها ــ بصفتى الصحفية ــ مؤتمرا عقده السيد عبد المجيد فريد فى حى العباسية ــ الذى اسكن به ــ وكان يقول للناس ــ ببرود مع استخفاف محكوم وملجوم بحرج الموقف ــ ما معناه : « لا تشغلوا بالكم أنتم بهذه الموضوعات واستمروا فى العمل والانتاج ، وثقوا بأن القيادة السياسية عين ساهرة لا تنام ! فقط عليكم تهيئة جو الهدوء ! حتى تفكر بذهن صـــاف .. وان شـــاء الله .. أن شاء الله حنخوض المعركة بس اعطونا فرصة نستعد ! .

وأيقنت ساعتها ، أن هذه الندوات ليست الا حفلات « زار » ، لانهاك الشعب المجروح فى دوامتها ، الى أن تمتص طاقة حزنه العصبية ، وتهدهده لكى ينام ولا يفتح عينيه على

المصائب التى توالت بعد الهزيمة ، من قبول للقرار ٢٤٢ — (الذى يتضمن اعتراف مصر بحدود آمنة معترف بها لاسرائيل) — الى مبادرة روجرز ، الى مذبحة المقاومة التى ارتكبها الملك حسين ملك الأردن — (وكانت المقاومة الفلسطينية تذبح فى ايلول — سبتمبر الأسود سنة ١٩٧٠ ، وكان الشعب المصرى يضع على أذنه المذياع ، ويستمع الى صرخات العطاشى ونداءات المقاتلين ، وهو مذهول لصمت وتلكؤ عبد الناصر واللجنة التى كونها من : الباهى الأدغم من تونس ، وجعفر النميرى من السودان ، والقذافى من ليبيا ، للذهاب الى الأردن لمشاهدة ما يحدث وتقديم تقرير عنه ! ثم ازداد ذهول الشعب المصرى لاستقبال عبد الناصر للملك حسين ، والاجتماع به فى القاهرة بعد مذبحته الاجرامية . وكانت الناس تتساءل غير مصدقة : هل هذا هو عبد الناصر ؟ هل هذا هو عبد الناصر ؟ واذكر اننى دخلت مستاءة مكتب رئيسى : رئيس تحرير مجلة المصور وقلت له : كيف يستقبل عبد الناصر الملك حسين بعد كل هذا ؟ فقال لى : صحيح استقبله لكنك لا تعرفين انه رفض أن يصافحه !!) — مضافا الى كل هذا كانت التنازلات الواضحة المستمرة عن مبدأ الاشتراكية — ولو أنه كان مجرد شعار — وبدأت العودة الى تدعيم القيم التى كانت السلطة وكتابها من قبل يزجرونها

ويسمونها : « القيم البرجوازية) ! بدأ تدعيم هـــذه القيم « البرجوازية » من خلال المجلات والصحف ، ومعها تدعيم نزعة الاقليمية المصرية ، والتراجع عن نزعة القومية العربية وتمثل هذا فى احتضان وتشجيع مسرحية مريبة من القطاع الخاص ! اسمها « ياسين ولدى » لفرقة تحية كاريوكا من تأليف فايز حلاوة واخراج كرم مطاوع تطرح نزعة الاقليمية المصرية عالية وحادة الى درجة الهستيريا — (ممـــاثلة للنغمـــــة التى ارتفعت فى جنازة يوسف السباعى ١٩٧٨/٢/١٩ حين ارتفعت الهتافات التى خرجت عن العقل : لا فلسطين بعد اليوم !) — وركزت المسرحية على نغمة ان كل المصائب التى حدثت لمصر العروس الجميلة بسبب العرب — (بحيث أصـــبح العرب لا الكيان الصهيونى هم اعداء الشعب المصرى) — ورغـــم السماجة الفنية التى عرضت بها هذه المضامين الخربة المريضة لا قت هذه المسرحية رواجا بين الكتاب والصحفيين : لا فرق بين من يدعى انه تقدمى مؤمن بالقومية العربية وبين من هو مثـــل موسى صبرى — (**ثلاثة رقصـــوا وغنوا حتى ماتوا من الاعجـــــاب بهذه المسرحية هم د . يوسف ادريس ، يوسف السباعى ، موسى صبرى**) — وحضر هذه المسرحية ممثلون للسلطة السياسية — شعراوى جمعة وزير الداخلية ، وضيـــاء الدين داود وعبد المحسن ابو النـــور . وخرجت الاشاعات تقول : أن شعراوى جمعة قدم عونا ماليا لفرقة

تحية كاريوكا كعربون اعجابه بمسرحية « ياسين ولدى » — — (كانت تحية كاريوكا مصدر هذه الاشاعات فقد كان يعجبها أن تلقى على نفسها ظلال الثقافة والسياسة وكانت تريد أن ترهب من يهاجم المسرحية : والطريف أنها أقسمت — حين سمعت بمهاجمتى للمسرحية — أنها سوف تضربنى لو وجدتنى فى مسرحها : مما دفعنى الى حضور المسرحية مرتين دون جدوى : اذ انها لم تضربنى للأسف !) — ورغم التقييم العام بأن السلطة السياسية لم تكن أرفع مستوى من عقلية تحية كاريوكا ، الا أن الدهشة ظلت لا تفارق المثقف الشريف ضمير الشعب المصرى — (وربما مثل الدهشة أمام الموت رغم انه قديم وحق) — : تلك مسرحية ترمى الى اشاعة حالة مرضية من الشفقة على النفس لدى الشعب المصرى المتعب المجروح المخذول : موهمة أياه أن المصائب جاءته بسبب انغماسه وتعاونه العربى ، وذلك بقصد تحويل اصبع اتهامه الى صدر العروبة بديلا عن صدر السلطة المصرية المهزومة : المسئولة حقا وفعلا بقيادة جمال عبد الناصر عن نكبات الشعب المصرى .

(كانت بطاقات المسرحية تصل الى خمسة جنيهات وما فوق ولم يكن لجماهير مصر الفقيرة أن تدفع ربع هذا المبلغ

الباهظ ، ولذلك قررت ادارة التلفزيون عرضها على شاشتها حتى قبل أن ينتهى العرض امعانا فى نشر الرسالة الضالة المضلة على أكبر عدد من الناس . والغريب ان بعد كل هذا الاحتفاء من سلطة عبد الناصر ومراكز قوته بتحية كاريوكا ، وفايز حلاوة ، وجدناهما ، **حين أطاح السادات بمراكز القوى يخرجان مع من خرجوا من تحت ابطى السادات لاعنين سابين مراكز القوى ، وأصبحا مع من أصبحوا من أعلام الثقافة فى عصر ((ثورة !)) مايو الساداتية** : ولكن لا عجب الم يكن السادات نفسه مركزا من مراكز القوة فى سلطة عبد الناصر، وأحد الرؤساء فى الحزب الطليعى السرى الذى انشاه عبدالناصر سريا على الشعب المصرى، حتى يطوقه من كل منفذ ؟ فبينما كان محظورا على الشعب أن ينشىء تنظيما سريا ضد الحكومة أباحت الحكومة انفسها انشاء التنظيم السرى * ضد الشعب ، مستمرة فى سرقة الشعب : دوره وحقوقه على كل شكل) .

فى نفس الوقت منعت السلطة السياسية وعوقت الكثير من مسرحيات القطاع العام ـــ الذى كان لا يزال يتعامل مع

*** كان محظورا على الشعب اولا ان ينشىء تنظيما علنيا يقوم بمهما المعارضة .**

بعض الكتاب الشرفاء الموالين لشعارات عبد الناصر الخاصة بالاشتراكية والتقدمية ، والمعارضين للواقع الكاذب الذى لا يحقق اشتراكية أو تقدمية أو نضالا شعبيا أو نظاميا . وكان من هؤلاء الكاتب المسرحى اليسارى ميخائيل رومان الذى قدم مسرحية « العرضحالجى — الزجاج » وأوقف عرضها لاشتداد حدة تفاعلها مع جمهور المشاهدين حيث كانت صرخة ضد الزيف والهوة الواقعة بين القول والفعل . أما مسرحية الشاعر نجيب سرور « آه يا ليل يا قمر » وصرختها :

« مصر يا أمة منكوبة دايما
بالخيابة ، والخناجر فى الضهور ... »

فقد كانت هدفا لهجوم منسق من قبل نقاد وكتاب الحزب الطليعى السرى ، لارتفاع نغمة الحزن بها (١) ! ولم يرحب كتاب الحزب الطليعى السرى — مع ترحيبهم بياسين ولدى الا بمسرحية غريبة — مريبة كذلك — لعبد الرحمن الشرقاوى اسمها وطنى عكا »(٢) : عكست منذ ١٩٦٩ خط الدعوة للسير حثيثا نحو الصلح والاعتراف باسرائيل .

---

(١) انظر ملحقات رقم ١ .
(٢) انظر ملحقات رقم ٢ .

فى هذا الطقس الذى استمر منذ ١٩٦٧ الى هـــلاك عبد الناصر : كان كل الصادقين من ابناء مصر يشعرون ان دفة الأمور لم تكن تسير وفق ما يجب أن يكون : كنا جميعا نشعر أن علينا أن نستعد بتكريس كامل جاد للاجابة على هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ كنا نؤمن — مع كل الشعب — بضرورة تكوين جيش لخوض حرب شاملة ((**صادقة**)) تؤدى فعــلا حقيقيا ضد العدو بلا استعراض واجهات تجارية كاذبة ، وكنا نرى بوضوح أن سياسة عبد الناصر واجراءاته تجرى فى اتجاه مضاد لما يريده الشعب المصرى المخذول . كنــا نرى ((السياحة السياسية)) مستمرة : تماما كما كانت قبل الهزيمة ، وكان عبد الناصر يتكلم فى النهار عن النضال وما يجب ان يسترد بالقوة ، وفى النهار ايضا ، كانت سلطات قمعه تحرق كل بذور ونوايا النضال . وكان محمد حسنين هيكل يخرج لنا كل جمعة بأفيون صراحته ، يغالط فى ضــوء الشمس كل الحقائق الصارخة ويقول : اننا لا نستطيع ان نحارب مثل فيتنام لأن فيتنام دولة فقيرة وشعبها بدائى وليس لديه ما يخسره : أما شعب مصر فشعب عريق : لديه السد العالى ، والأهرامات ، ولا يجب أن يعرضهما للدمار والنسف ، بدخوله حربا مثل حرب فيتنام — (انظــر مقـــالات هيكل بالأهرام ما بين ١٩٦٧/٦ الى ٦٧/١٢) — واستمر هيــكل يركز على الحل السلمى ، وفقا لقـــرار ٢٤٢ — المعترف

باسرائيل ــ وأن الحرب الوحيدة الممكنة هى : حـــروب استنزاف لفرض الحل السلمى . وكان يقدم منطقــا تعجيزيا يوهن من عزيمة الشعب المصرى بقوله : انه لا يمكن الحرب ضد اسرائيل : لأن الحرب معها تعنى الحرب مع امريكا . ونحن لا يمكن أن نناطح أمريكا . واخترع خرافة اســـمها « تحييد أمريكا » !

كانت مقالات هيكل السامة دائبة ألسعى لانهـــاك معنويات الشعب المصرى وسحقها : وكان يبدو فى مقالاته ديناصورا ساديا كريها : لكنه كان يرضى بمقالاته وروحه هذه الكثير من شرائح المثقفـين المهزومين والثـوريين مع وقف التنفيذ ــ « بتوع نضال آخر زمن فى العوامات » كما وصفهم الشاعر نجم) ــ وكانت هذه الشرائح ــ بطبيعة ذاتيــة أنانية ــ تبحث وسط الخراب عن المكسب الذاتى والمصلحة الشخصية ، وكانت ترى فى راية الكفاح الشعبى ومواصلة الاستعداد للدفاع من أجل استعادة كل الأراضى المحتـــلة بالقوة ، كانت ترى فى هذه الراية ما يهدد استقرارها وراحتها لذلك قامت هــذه الشرائح بتبنى مقولات هيكل ، وصــورته فى هيئة الرجل العاقل الواقعى غير المتهور ، اذ وجدت فى صراحته الكاذبة صياغة رائعة لما يجول فى ضمائرها ويخدم

اهدافها — (كان أهم ما أبدع فيه هيكل هو اعلانه اننـــا انتصرنا فى الحقيقة — رغم خسارة الرجال وضياع الأرض — ونصرنا هو : أن نظام عبد الناصر لم يسقط وبالفعل صرنا نحتفل بعيد النصر رغم الهزيمة !) —

الى جانب شرائح محمد حسنين هيكل الثقافية ، وثقلهم الديناصـــــورى على انفـــاس الشـــعب المصرى : بدأت شرائح الشـــعب المســـتضعف والمثقفين الصادقين يجـــدون حزنهم وآلامهم وكبتهم يتبـلور ويتم التعبـــير عنه بقوة وجرأة ، من قبل كيان فنى مفاجىء فرض نفســه على الأوساط الثقافية والسياسية رغم أنف الجميع : فلقد بدأت الأغنيات السياسية للكيان الفنى امام — نجم(1) تظهر، لتفرض صراحة كل ما يزفر به صدر الشارع المصرى . وبدت هذه الأغنيات كسلاح قوى — فى جبهة المقاومة الثقافية — يدحض مغالطات هيكل وصوت سيده . وبدأ كل مغتاظ يفرش تحت أضراسه :

« بصراحة يا أستاذ ميكى ... (المقصود هيكل)

انك رجعى وتشكيكى

---

(1) انظر مرفقات رقم ٣ .

قاعد لا مؤاخذة تهلفط

وكلامك رومانتيكى

ولا ناوى تبطل تكتب

بصراحة كلام بولوتيكى

عن دور الحل السلمى

واستعماله التكتيكى

فى الوقت اللى احنا صراحة

دايخين دوخة البلجيكى

وبلدنا لسه جريحه

وبتصرخ بالأفريكى :

لو بات التار يا اولادى

حيبات الذل شريكى

والشعب يقول يا بلادى

بالروح والدم أفديكى

وحاجات بصراحة بتحصل

فى بلدنا يا أستاذ ميكى

بصراحة لا انت معـــايا

ولا طالل من شبابيكى

وكأنك مثلا موميـــا

للســلطان الأنتيكى

احياها لاستعمالهـــا

لستعمار الأمريكى

رجعت على هيئة :

ميـــكى ! »

* * *

واغنية تسخر من صحافة عبد الناصر بأكملها وتوسمها لخير فى مجىء نيكسون بعــد ذهـــاب الرئيس الامريكى جونســون :

« قولوا هأو أو قولوا هـــاء

على صحافتنا الغير غـــراء

ا با تا ثا ج ح الف باء

جونوسون روح

نيكسون جـــاء ! »

مع اغنية تصرخ بالاحتجاج على مقولة : النصـــــر رغم الهزيمة ! ! . .

« ايه يعنى شعب فى ليل ذله

ضايع كله

ده كفايه بس لما تتول لــه :

احنـــا الثوار !

وكفايه أسيادنا البعـدا

عايشـين سـعدا

بفضل ناس تملا المعدة

وتتول اشـعار .

اشـعار تمجد وتماين

حتى الخــاين

وان شـاء الله يخربها مدابن

عبد الجبـــار ! »

كان المقصود بـ « عبد الجبار » : عبد الناصر . وسمع عبد الناصر هذه الأغنيات وهاج وقال لشعراوى جمعة : « ناس بتتول الكلام ده ولسه واقفه على رجليها ؟ ! » .

وقرر شعراوى جمعة القاء القبض على الشيخ امام والشاعر نجم ــ مع نعتهما بالشيوعية ــ وسجنهما مدى الحياة بلا محاكمة : عقوبة لهما على التعبير عن آلام الشعب المصرى .

وقتها اقترح هيكل علاجا خسيسا افضل : وهــو احتواؤهما وافسادهما بالمال والشبع ، حيث قال : « دى صرخة جوع ، شبعوهم ! » وفعــلا جرت محــاولات لتقديمهما فى الاذاعة والتليفزيون ، ونشرهما من خلال اصوات فايدة كامل ، محمد رشدى ، ليلى نظمى ! وصاحب ذلك موجة ساخنة تكتب عنهما فى صحف السلطة بحماس : ابرزهــا كتابات رجاء النقاش ، الذى كان واسطة تنفيــذ مخطط السلطة ، لاحتواء الفنانين المعدمين .. لكن مالبث المولد ان انتهى ، عند اكتشاف ان « امام ــ نجم » صعلوكان لا امل فى احتوائهما ، وانهما ما زالا مستمرين فى كتابة وغنــاء آلام وأوجاع الشعب المصرى ، بأسلوب نقد لاذع سافر ، موجه فى تركيز واضح ضد السلطة المهزومة . وبناء على ذلك تم تنفيذ القرار ، ودخل امام ونجم السجن الى مدى الحياة .. لكنها كانت مدى حياة عبد الناصر ، التى لم تستغرقهم غير ثلاث سنوات فى السجن .. أخرجهما بعدها أنور السادات مطلقا سراحهما .. لكنه عاد واعتقلهما بعد شهور ، حين استمرا يعبران عن حس الشعب المصرى ، الذى لا يخيب ، والذى

أدرك ـــ على الفور ـــ أن السادات ليس سوى تكملة لمشوار عبد الناصر ، فى ارهاق الشعب المصرى : بالزيف والكذب .. والشعارات المراوغة الطنانة .. وبالقمع .. والقهر .. سياسة مستمرة .. فلا يوجد فى الواقع أى تناقض بين نظام عبد الناصر والسادات .. ولكنهما حلقتان متتابعتان فى خيط واحد يبدأ منذ سرقة ثورة الشعب المصرى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ثم سرقتها مرة أخرى عام ١٩٥٤ .

* * *

وتعجب للناصريين ، الذين يتبجحون اليوم بادانة اجراءات ٣ سبتمبر ١٩٨١ السوداء ، دون ادانة اجراءات مذبحـــة الاعتقالات صيف ١٩٦٥ الأسود .. ويتبجحون برفض اتفاقية كامب ديفيد ـــ راكبين موجة الرفض الاسلامى ـــ وتسألهم : أليس قرار ٢٤٢ هو القرار الذى قبله معبودكم عبد الناصر ؟ وما هى كامب ديفيد الا تكملة المشوار الذى بداه زعيمكـــم ذو الخوار ! ويبكون متمسحين حبا فى خالد الاسلامبولى ، وتريد وجوههم التمساحية ، عندما تشير الى اكفهم المضرجة بدماء الشهيد الوضىء سيـــد قطب والشهداء اخـــوته الآباء الشرعيين للبطولة الفذة ، التى تجلت فى فدائيتهم حين قاموا يهتفون للروح الاسلامية المنتصرة :

« فى ســـبيل الله قمنـــا »
« نبتغى رفـــع اللـــواء »
« لا لحـــزب قـــد عملنـــا »
« نحن للدين الفـــــداء ! »

وسوف « يهلضم » الناصريون ردا على تساؤلك : ولن تفهم منهم وسط الشقشقات والطقطقات ــ والبلطجة معظم الوقت ــ الا نفس الطنين الناصرى المعهود والضجيج الذى بلا طحن أو طحين .

وانا لله وانا اليه راجعون وعدا حقـــا .

صاقٍ نازٍ محمد كاظم

القاهـــرة : ١ / ١٤٠٣ هـ
١٠ / ١٩٨٢ م

* * *

ملحقـــات :

١ ـ أمل دنقل : شاعر الرؤية الموجعة .

٢ ـ عبد الرحمن الشرقاوى : شاعر الرؤية المضللة

٣ ـ الكيان الفنى امام ـ نجم : رؤية النبض الشعبى

١ ـ امل دنقل : شاعر الرؤية الموجعة

فى ١٩٦٧ اخترعت السلطة المهزومة لنا شعار : « هذه ليست ساعة للحزن .. بل ساعة للعمل » . وكان هـذا الشعار يحمل فى طياته ارهابا لمن يضبط متلبسا بـ « الحزن » اكثر مما حمل من نية « عمل » على الاطلاق . وكان علينا أن نتخفى بأحزاننا ونهربها فى النكات ، لكن المشكلة كانت فى الشعر والشعراء !

لم يكن ممكنا للشاعر الصادق ـ أيا كان منطلقه ـ أن يخفى أو يتخفى ، بل على النقيض ، كان عليه أن ينفـذ ـ ببصيرته الى عمق الـ « آه » المكلومة فى قلب الشعب ليبصقها فى حنق على وجه : « اشعار تمجد وتماين .. حتى الخاين » .

وهكذا خرج أمل دنقل بـ « البكاء بين يدى زرقاء اليمامة » وخرج احمد فؤاد نجم بـ « ناح النواح والنواحة » ومعهمـا

كان نجيب سرور قد صرخ « آه يا ليل يا قمر » على طول وعرض المسرح . وبالطبع لم تسمح رقابة السلطة المهزومة وقتها بنشر قصائد الشاعرين لأنها كانت قصائد من « أوراق الشعب المصرى السرية » وهذه أوراق لم تكن — والى الآن — موضع اهتمام أى من « ثوار » ومناضلى السلطة المهزومة عام ١٩٦٧ : فهؤلاء « الثوار » كانوا يؤكدون أن ماحدث فى ١٩٦٧ هو انتصار وليس هزيمة .. لأن مصر لم تخسر سوى أرض وعدد من آلاف الرجال لا أكثر ، أما الهزيمة فلا تكون الا عندما تمس شعرة من رأسهم هم فقط : أفراد وحاشية سلطة ١٩٦٧ المهزومة .

ولم يكن ممكنا أن اقرأ قصيدة أمل دنقل الا عندما أعطاها لى سرا فى الشهر الثانى من ١٩٦٨ وقلت له سأحاول ان أهربها للنشر فى مقالى بمجلة المصور . قال أمل بيأس : مستحيل ، المنع صريح . قلتله : عندنا رقيبمصرى أولا وموظف ثانيا وسأقنعه بأن التعليمات تمنع نشر القصيدة لكنها لم تنص على منع ما نكتبه عن القصيدة . وفعلا كتبت مقالا نشر بمجلة المصور فى ١٩٦٨/٣/٢٩ بعنوان مخالف لعنوان القصيدة الممنوع مأخوذ من صلبها وكان يعبر عن النظرة الصامتة فى عيون الشعب المصرى المخذول :

« تكلمى لشد ما أنا مهان ! »

لم تكن قيمة قصيدة : « البكاء بين يدى زرقاء اليمامة »
فقط فى تفوقها وتكاملها الفنى ، ولكن فى توقيتها وما تعطيه
من دفقة حزن عتية ، تحسها محمولة بملايين الأصوات ..
ملتحمة كتلة خشنة وشديدة الرقة .. غائرة الجرح وكاملة
الوعى وتبدأ بصورة الرجال الذين شربت الصحراء دماءهم :

« أيتها العرافة المقدســـة ،

جئت اليك مثخنا بالطعنات والدماء ،

أزحف فى معاطف القتلى ،

وفوق الجثث المكدسة ،

مغبر الجبين والأعضاء ،

أسأل يا زرقاء عن فمك الياقوت ،

عن نبوءة العذراء ،

عن ساعدى المقطوع وهو ما يزال

ممسكا بالراية المنكسة :

عن صور الأطفال فى الخوذات
ملقاة على الصحراء :

عن جارى الذى يهم بارتشاف الماء
فيثقب الرصاص راسه فى لحظة الملامسة
أسأل يا زرقاء عن وقفتى العزلاء
بين السيف والجدار ،
عن صرخة المرأة بين السبى والفرار
كيف حملت العـــــار ـــ
ثم مشيت دون أن أقتل نفسى
دون أن انهار
ودون أن يسقط لحمى
من غبـــــار التربة المدنسة .

. . . .

تكلمى بالله (باللعنة بالشيطان)
لا تغمضى عينيك فالجرذان تلعق
من دمى حساءها ولا اردها .
تكلمى لشد ما أنا مهان .
لا الليل يخفى عورتي ولا الجدران
ولا اختفائى فى الصحيفة التى اشدها

ولا احتمائى فى سحائب الدخان ـ
تقفز حولى طفلة واسعة العينين
عذبة المشاكسة : (كان يقص عنك
يا صغيرتى ونحن فى الخنادق
فنفتح الأزرار ساعة ونسند البنادق
وحين مات عطشا فى الصحراء المشمسة :
رطب باسمك الشفاه اليابسة
وارتخت العينــان) ــ
فأين اخفى وجهى المتهم المدان
والضحكة الطروب ضحكته ،
والوجه والغمازتان » .

الخلفية فى القصيدة مستمدة من قصة زرقاء اليمامة فتاة جديس فى الجاهلية ، التى كانت تبصر الشىء على مسيرة ثلاثة أيام ، وحدث أن أبصرت يوما ما يشبه أشجارا تسـير ببطء فى اتجاه مدينتها ، وعندما أخبرت قومها أنها ابل اعداء قادمين ، تسير وئيدا متخفية تحت افرع الأشجار ، سخروا منها ، واتهموها بالخبل ، وعجز الرؤية . لكنهم فوجئوا بعد أيام بوقوعهم فى قبضة الأعداء وعرفوا ــ بعد فوات الأوان ــ

صدق ما حذرتهم به زرقاء اليمامة ، التى فضلت أن يفقأ الأعداء عينيها ، على أن تسخرهما لخدمتهم .

« زرقاء اليمامة » فى قصيدة « أمل » هى : بصيرة الطليعة الواعية الصادقة : والمتكلم فى القصيدة هو من فلول العائدين المهزومين : جرحى القلب والجسد بعد المعركة المخادعة . المتكلم يبكى بين يدى « الرؤية » التى نبهت — قبل المصائب — الى شواهد كان لابد أن تقود الى هزيمة: لكن أحدا من السلطة الذاتية الفردية اللاهية لم ينتبه .

الصوت الذى يقدمه الشاعر ليس مفردا : بل هو الحشد الذى يضم غالبية البسطاء من الشعب الذين يعانون الادراك بأن الصحراء ليست هى وحدها التى شربت دماء الرجال .. لا ! لقد شاركتها السلطة فى الوليمة الدسمة وشربت من دماء الرجال — قبلها — قسطها الوفير :

« أيتها العرافة المقدسة ،
لا تسكتى فقد سكت سنة فسنة
لكى أنال فضلة الأمان .
قيل لى : « اخرس » !
فخرست وعميت وائتممت بالخصيان .

ظللت فى عبيد « عبس » حرس القطعان ..
أجتز صوفها ، أرد نوقها ،
نام فى حظائر النسيان ..
طعامى الكسرة والماء وبعض التمرات اليابسة .
انا الذى ما ذقت لحم الضأن
أنا الذى لا حول لى أو شـــأن
أنا الذى اقصيت عن مجالس الفتيان ..
أدعى الى الموت ولم أدع الى المجالسة !

. . . . . .

تكلمى .. تكلمى ،
فها انا على التراب سائل دمى
وهو ظمى
يطلب المزيدا .
اسائل الصمت الذى يخنقنى ..
ما للجمال مشـــيها وئيدا
أجندلا يحملن أم حديدا
فمن يا ترى يصدقنى ..

اسائل الركع والسجودا ... !

« البكاء » الذى حرمته التعليمات على الشعب تطرحه القصيدة سميكا سمك الدم ولونه وثقله . الدموع نزيف وئيد غال .. حرام .. فهى ساعة للحزن : ساعة للحزن : لا فرار : مرة بسبب الهزيمة وخرابها الواقع ، ومرة بسبب الكذب والدجل لاخفائها وتحويرها والهروب من مواجهة تبعاتها ..

« ونحن جرحى القلب والروح والفم

لم يبق حولنا الا الحطام والدمار

. . . . . .

وأنت يازرقاء ،

وحيدة عمياء ،

وما تزال أغنيات الحب والأضواء ،

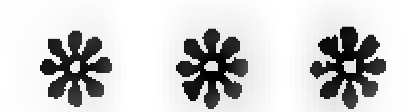
والعربات الفارهات والأزياء ؛

فأين أخفى وجهى المشوها

كى لا أعكر الصفاء الأبله المموها ! »

وكان لابد لـ « العربات الفارهات والأزياء » فى زمن الدم

والعار : ١٩٦٧/٥ أن تقود الى مزيد من « العربات الفارهات والأزياء » ومزيد من ازمنة للدم والعـــار : ١٩٧٧/١١/١٩ زيارة السادات للكيان الصهيونى وما بعدها .. فكل ثمرة تأتى من صنف غرسها وطبيعة بذرتها .



٢ ــ عبد الرحمن الشرقاوى : شاعر الرؤية المضللة .

عام ١٩٦٨ ــ أى بعد هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ بعام واحد ــ كتب عبد الرحمن الشرقاوى مسرحيته « وطنى عكا » وفى الموسم المسرحى ٦٩ ــ ١٩٧٠ قدمها المسرح القومى عرضا مسرحيا من اخراج كرم مطاوع .

وقد سبب لى النص الذى قرأته والعرض الذى شاهدته لـ « وطنى عكا » فى ذلك الوقت ــ ١٩٦٩/١١ ــ حالة اندهاش وصدمة وغضب شديد اذ برز أمامى وقتها اعتراضان :

الأول : مرتبط بمدى الشعر فى شعر المسرحية الركيك فى لفظه وتركيبته وايحاءاته وتوظيفه للمواقف والخط المسرحى.

الثانى : سياسى .. مرتبط بالرسالة الفكرية أو السياسة التى تطرحها المسرحية .

وأتذكر انه رغم قوة بروز الاعتراض الأول بدأ الحديث

عنه امامى نوعا من الترف حين وضعت حجمه فى نسبة مع الخطورة التى مثلها الاعتراض الثانى .. وهو ما طرحته المسرحية من مغالطات وافكار حول موضوع فلسطين وصراع العرب ضد الصهيونية ـ (غير متكلمين عن تصحيح الطرح حيث انه صراع بين الاسلام ضد الصهيونية والصليبية متكاتفين) .

فى ذلك الوقت كنت ـ رغم كل الانهيارات ـ بريئة الذهن ، حسنة الظن جدا ، فتصورت أن ما طرحه الشرقاوى من افتراضات ـ منحرفة وخطرة ـ كان مجرد خطأ وقع فيه ـ بحسن نية ـ بسبب ما أسميته « ليبراليته الميلودرامية » أو بسبب جهله بحقائق موضوع العدوان على عرب فلسطين المسلمين .

ولكن موقفه فيما بعد ، فى تأييده خط الصلح الكامل مع اسرائيل الذى انتهجه السادات ، وتطابق المغالطات التى طرحها الشرقاوى عام ١٩٦٩ فى المسرحية مع المغالطات التى داب السادات وإعلامه على ترديدها حول قضية فلسطين وعلاقتنا بالكيان الصهيونى المغتصب ، جعلنى أكتشف أن عبد الرحمن الشرقاوى لم يكن واقعا فى خطأ ـ كما حسبت ـ ولكنه ـ بكامل قواه العقلية والأيديولوجية ـ كان متبنيا لتلك المغالطات ، وداعيا لنظرة الأحزاب الشيوعية العربية الشوهاء المجرمة ، التي ظلت تعتقد بوجود شعب طيب فى « اسرائيل » تحكمه قلة رجعية لا تمثل الغالبية ، وأنه لو

تغير نظام « اسرائيل » ـ يقصدون الكيان الصهيونى ـ من الرأسمالية الى الماركسية تنعدل الأمور وتنتهى المشكلة . أى ان الشرقاوى كان يعبر ـ ولا شك أنه نجح فى التعبير ـ عن رؤية شوهاء لمستقبل أهم واوضح قضية من قضايانا على المستويين القومى والاسلامى .

***

تبدا مسرحية « وطنى عكا » بحازم ، يروى فى تمهيد قصة ضياع الأرض ، فيقول : « انكم لم تعرفوا المأساة حقا ... » ـ وتحسب أنه سيقول فعلا ما لم يوضع من قبل فى اطاره السليم : أن المأساة تبلورت بدايتها منذ وعد بلفور ١٩١٧ . وكيف تكونت فكرة الصهيونية التى تعتبر اليهودية جنسا وقومية : كيف تكونت بحركتها الدائبة الموجهة لتقويض الاسلام ـ لا سمح الله ـ ومهاجمته على أرضه . وكيف اعتمدت على الاستعمار الصليبى الجديد ، الذى تحمل لواءه الآن الولايات المتحدة . كيف أنها لصيقة بالامبريالية العالمية: مستفيدة منها ، ومدعمة بها ، وخادمة لأغراضها .. لكنها لم تكن أبدا ضحيتها أو متورطة معها ـ لكننا نرى بطل الشرقاوى « حازم » هذا يردد ـ لا يزال ـ الخطابة القديمة والرؤية المسطحة بأن المأساة بدأت ١٩٤٨ بهزيمة النظم العربية أمام الجيش الصهيونى الصغير ـ (لاحظ أن ١٩٤٨ صارت كذلك لا يتم ذكرها الآن .. فالحديث كله صار عند الثوار الناصريين والعلمانيين يبدأ بازالة آثار العدوان عام ١٩٦٧ ـ ووصل

عقد النظم العربية الحالية الى ادانة مذابح صـــابرا وشـاتيلا
١٩٨٢/٩/١٧ !) —

ويبدأ الشرقاوى فى تقديم افتراضات — ليس لها اى مبرر مادى — لنماذج من العسكرية الاسرائيلية ، يفترسهم تأنيب الضمير ، صبيحة انتصارهم واستيلائهم على الأراضى العربية عام ١٩٦٧ ! ويظهرون كلهم كضحايا تضـــليل الصهيونية ، حتى الذى شارك فى تكوين تنظيم لشـــباب الصهيونية فى لندن ! — (لاحظ الدس لايجاد شعور بأن هناك فارقا بين الصهيونية وبين دولة اسرائيل !) — ويصـــل تأنيب الضمير بواحد منهم اسمه « مارسيل » — وهو فرنسى الأصل — الى أن يعود الى فرنسا ، بالرغم من الصعاب التى تنتظره هناك ، وترغمه على العودة الى اسرائيل .

وخلال ذلك ، لا ينسى الشرقاوى أن يقدم لنـــا كذلك شخصية صحفية فرنسية اسمها « ايمى » جاءت لتكتب عن المقاومة الفلسطينية، لكنها تحكى لنا عن : « جندى اسرائيلى حر ، سئم الحرب ففر ، ومات الجندى المسكين ، وكانت آخر كلمات أطلقها : فليحيا الانسان صديقا للانســـان .. » — (وهذا المقتطف بين الأقواس من نص المسرحية) .

وعندما نصل الى المشهد الأخير يصور لنا الشرقاوى نضج وكثافة ما ادعاه — طوال المسرحية — من الأصـــوات

الحره التى ارتفعت داخل اسرائيل وتاثيرهـــــا فى الموقف الحاسم ، عندما يأمر الضابط الاسرائيلى « يعقوب » بنسف القرية العربية اذا لم تسلم الفدائيين ، فيتقدم الضـــابط الاسرائيلى (الحر) «سلامسكى» معترضا فى غضب وثورة على أمر قائده « يعقوب » ــ (ولا يضربه يعقوب بالرصاص كما هو متبع فى مخالفة الأمر العسكرى اثناء معركة ، بـل يجادله بالحسنى !) ــ ونجد ضابطا اسرائيليا آخر (حرا) كذلك اسمه « سعد هارون » ــ من يهود فلسطين القدامى ــ يؤيد معارضة « سلامسكى » متخذا أسلوبا دينيا كهنوتيا فى التعبير عن رفضه لأمر الضابط « يعقوب » بنســف القرية العربية !

وفى هذه اللحظة نفسها ــ والشرقاوى يصور لنــــا الأصوات الحرة فى اسرائيل تعارض وتمنع الذبح والنسف والقتل ، وهى تبدو متغلبة ومنتصرة على التيار المعـــادى للعرب فى هذه اللحظة بالذات يدخل الفـــدائى الفلسطينى « أبو حمدان » بالمفرقعات وبخدعة سانجة يستطيع أن يقنع الفرقة العسكرية الاسرائيلية ــ (التى تبدو طيبة وانسانية الى درجة البراءة) ــ يقنع الفرقة بالالتفاف حول صندوق المفرقعات فينفجر ويقتل الفرقة العسكرية كلها .. ويضـــاء المسرح ونرى الفرقة الاسرائيلية الانسانية جثثا مبعثرة على الأرض .. اشلاء الأصوات الاسرائيلية (الحرة) التى قتلها الفدائى الفلسطينى !

وبهذا يصل الشرقاوى ــ بمدلول اللغـــة المسرحية المرسلة مع هذا المشهد ــ الى أن المقاومة الفلسطينية ، انما تقتل بأعمال (العنف) الأصوات الحرة ، التى نكسبها داخل معسكر الأعداء ! وبذلك يخــلص حضرته الى ادانة المقاومة ، لصالح تلك الأصوات الحرة المزعومة ، التى يدعى وجودها فى داخل الكيان الصهيونى المعتدى ، والتى تدعونا المسرحية الى الاعتراف بها والتعاون والتعاطف معها ، وفق خطة رؤية خائنة تضللنا طيلة العرض المسرحى .

* * *

الذى يرضينى قليلا الآن أننى ــ حتى وقت افتراضى حسن النية فى ضمير الشرقاوى ــ لم أسكت له على الخطأ النابى ، الذى بدأ ــ عام ١٩٦٩ موجعا نشازا ، وكتبت نقدا للمسرحية بعنوان « الجدوى واللا جــدوى فى مسرح عن المقاومة : ثم الشرقاوى والميلودرامية الليبرالية » ونشر هذا النقد بعدد مجلة المصور الصادر فى ١٩٦٩/٢/١٩ وركزت فيه على حقيقة من الحقائق ، التى كان علينا ــ وما زلنا ــ أن نواجهها وهى : أنه حين رفعت السلطة فى مصر شــعار « اعرف عدوك » قبل وبعد الهزيمة ، كان لابد أن ندرك أننا بحاجة ملحة الى رفع شعار يسبق الشعار الأول ويمهد له وهو : « اعرف قضيتك » . اذ لابد لنا أن نعترف بأن الكثير من سواد الناس ومن المثقفين ، ظلوا الى ما قبل هزيمة ١٩٦٧

يرزحون تحت سحابة من الأمية السوداء ، فى كل ما يختص ويتعلق باغتصاب فلسطين .. لايعرفون على وجه الدقة الكثير من الجوهرى والأساسى فى ملابسات ، وظــروف ، ونوعية ، نشأة وتطــور التسلل الصهيونى الى الأرض الاسلامية ، والى عقلنا قبل الأرض .

وبناء على هذه « الأمية » ظل الاحتكاك بقضية فلسطين مشوشا ، غائصا فى لجج من الخزعبلات . ونتج من ذلك حالتان نقيضتان فى المظهر .. لكنهما شىء واحد فى تأثيرهمـــا النهائى :

● أولا : حالة الاندفاع العاطفى المعبىء لكراهيـــة عميـــاء من السهل محــوها ولا يمكن توظيفهـــا بديلا عن كراهية مستنيرة واعية ، مرتكزة على أسباب وواقع عدوانى قائم لا يمكن محوها الا بمحو أسبابها ، والواقع العدوانى المستندة اليه .

● ثانيا : حالة رد الفعل والسخط على ماجرته علينا حالة الكراهية العمياء ، من اندفاع عصبى أعمى . وأخذت الحالة الثانية شكلا ـــ أعمى بدوره ـــ من ســـعة الأفق والعقلانية ومع جهلها وتجاهلها للواقع العدوانى للكيـــان الصهيونى وبمبالغاتنا فى تفادى الوقوع فى الكراهية العمياء ، وقعت فى تقـــدير مبالغ فيه لامكانيات العـــدو الفكرية والبشرية والتنظيميـــة والديمقراطيـــة تقـــدير يحط من معنوياتنا على الجانب الآخر ، ويحور الصراع من أساسه ،

الى المقولة الخطرة المتميعة : بأن الصراع مع اسرائيل فى فى الواقع « صراع حضارى » ! ! وأن علينا أن نجتهد للحاق بالبناء الشاهق للحضارة ، المتمثل فى الكيان الصهيونى .. بحيث تنتفى وتلغى تماما استعدادات المواجهة العسكرية — (الحتمية ان لم يكن من جانبنا فمن جانب الدولة الصهيونية ، كما دللت الأحداث المأساوية فى لبنان ، وبعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام المزعوم !) — ونكرس جهودنا فى الصراع والتحدى الحضارى بيننا وبينهم : فى القصة والشعر والرقص والغناء — فقط — (لأن أى تنافس نووى او علمى ، سوف ينسف ويضرب بقسوة من قبل الدولة الصهيونية المتحضرة ، ونسف مفاعل بغداد النووى واغتيال العالم الشهيد الدكتور المشد ، ماثلان أمامنا منذ البارحة !) —

وارتفعت أصوات من ركبتهم هذه الحالة ، بمغالطة منطقية غريبة وهى : ان هناك أصواتا حرة داخل «اسرائيل» تنطلق من اطار ديمقراطى وبمساعدة هذه الأصوات يمكن أن تنجح فى تشكيل تيار عام يؤنبه ضميره لما اقترفته « اسرائيل » من جرائم ضد العرب .

— (لاحظ داخل الكيان الصهيونى ، ننجح نحن فى تشكيل تيار لصالحنا ، ولعلنا لا ننسى المفارقة فى أن الكيان الصهيونى — للأسف — هو الذى نجح فى تشكيل تيار عام داخلنا نحن لصالحه ! : انظر خريطة النظم العربية !) —

وكما خلق لنا المنطق الأول الأعمى — (الذى رسخه عبد الناصر فى النفوس قبل النكسة) — الوسادة التى نام فوقها البعض بأننا سندخل تل أبيب بقيادة عبد الناصر الحبيب

كذلك خلق لنا المنطق الثـــانى ــ المزيف لواقـــع اسرائيل العدوانى بأن هناك اصواتا حرة داخل الكيان الصهيونى ــ خلق لنا وســادة حلا ــ ويحلو ــ للبعض أن ينام بدوره فوقها منتظرا عــــــدونا ، الذى ســــــوف يأتى تائبا معتـــــذرا ناقدا نفسه ــ نقدا ذاتيا ــ لما ارتكبه فى حقنا من جرائم ، لأنه كان مضللا ثم أفاق ــ (وتولد هذا المنطق منذ عهد عبد الناصر بعد الهزيمة وتسلمه محمد انور السادات وبلوره وحمله على عاتقه الى الكنيست الصـــهيونى ١٩٧٧/١١/١٩ ــ حيث تحدث ، وصافح ، وعانق ، وغرق ، فى حب ديان وجــولدا مائير . . . الخ . . وحيث وجدنا مناجم بيجن بعدها ، تبلغ به التوبة ويبلغ به الندم الى حد اقامة المذابح لابادة اللبنانيين ، والفلسطينيين المسلمين منهم على وجه الخصوص ، حفظا لود الصراع الحضارى والحوار الثقافى بينه وبين « محمد » أنور السادات !) ــ

الأمر الذى يجدر الاشارة اليه بعد هذا كله أن مسرحية « وطنى عكا » ــ برؤيتها الخائنة ــ لقيت وقت عرضــــــها احتفاء وتكريما وتدعيما من السلطة السياسيةالناصرية ــ (التى احتفت من قبل « بياسين ولدى » ــ اذ حضر العرض خبراء السلطة السياسية وأبدوا اعجابهم الشديد بالعرض ، ورضاهم الكامل عن رؤيته السياسية . بل ان المفارقة الكبرى كانت التكريم الأكبر الذى جاء من قبل بعض ممثلى المقـــــــاومة الفلسطينية ، الذين قدم « أبو اياد » باسمهم درع المقاومة، جائزة تقديرية للمخرج كرم مطاوع ، والمؤلف عبد الرحمن الشرقاوى عن عملهما ذاك الشائن .

٣ ــ الكيان الفنى امام ــ نجم : رؤية النبض الشعبى

يوم أعلنت ألهزيمة باسم النكسة فى يونيو ١٩٦٧ وجد أحمد فؤاد نجم نفسه يتقيأ دما .. ومع هذه الحالة الجسمانية المفاجئة جلس ليكتب قصيدته الشهيرة التى كلفته قـــرارا بالاعتقال مدى الحياة عام ١٩٦٨ :

الحمد لله خبطنا تحت باططنا

يا محلى رجعة ضباطنا من خط النار !

• • • • • •

يا أهل مصر المحمية بالحرامية

ألفول كتير والطعمية

والبر عمــــار

والعيشة معدن وآهى ماشية

آخر آشـــيه

ما دام جنابه والحاشية

بكروش وكتـــار .

حاتقوللى سينا وماسيناشى
ماتدويشناشى
ماستميت أتوبيس ماشى
شاحنين أنفار .
ايه يعنى لما يموت مليون
أو كل الكون
العمر أصلا مش مضمون
والناس أعمار .
ايه يعنى فى العقبة جرينا
والا فى سـيـنا
هى الهزيمة تنسينا
اننـا أحرار ؟
أيه يعنى شعب فى ليل ذله
ضايع كله
ده كفايه بس أما تقول له
احنـا الثـوار
وكفايه أسيادنا البعـدا

عايشين سعدا

بفضل ناس تملا المعدة

وتقول أشعار .

أشعار تمجد وتماين

حتى الخاين

وان شاء الله يخربها مداين

عبد الجبار !

* * *

وكان طبيعيا أن تخرج القصيدة الترجمة الفورية لقدر عنيف من الغضب والألم ، أحسه الشعب المصرى واستنزف من جوف الشاعر الدم .

وعندما تسللت القصيدة الى الناس ، تسللت معها عشرات القصائد السياسية المغناة : « بقرة حاحا » ، « ميكى » ، « يعيش أهل بلدى » ــ (سخرية من الصيغة المزيفة لتحالف قوى الشعب العاملة ! ــ ، « كلب الست » ــ (سخرية من كلب أم كلثوم الذى كان أهم وأعز من مواطن مصرى بائس) ــ « يا مرحرح » ــ (صورة ساخرة للشريحة الملاصقة للسلطة السياسية الناصرية من مؤيدى الحل السلمى : « وتموت ف الدبلوماسية / وتخاف م الفدائيين ») ،

« كلام المصطبة » ، « القضية » — (صورة دقيقة ومؤلمة للارهاب السياسي والابتزاز ومنهج تلفيق القضايا ضد المواطنين الذى تفنن فيه العهد الناصرى : « والقضية يا قضايا / بالمكايد والوشاية / دبروها وفصلوها / بالمقاس لبست قفايا ... / الحكاية ان البلد مش ملك ناسها / والخلايق ف البلد مش مالكة راسها / والبلد اصلا بلدنا مش عليلة / البلد علتها جاية من خرسها » .) — .

ومع القصائد فاجأ الناس بنيان فنى عمره خمس سنوات ، وبدات دوائر المثقفين تردد اسم « امام — نجم » بدهشة واستغراب . وكانت الغرابة والدهشة أن « امام — نجم » يقول ببساطة ما يجب أن يقال وتماما فى توقيته المطلوب .

وبدأت الحلقات تتجمع أولا فى بيوت من يملكون اجهزة تسجيل ومنديل الأمان من السلطة . وقبل انتشار أجهزة الترانستور الرخيصة حاليا : كان امتلاك جهاز تسجيل ، يلخص على الفور النوعية القادرة ماليا على هذا الامتلاك ، مضافا اليه امتلاك منديل أمان السلطة ، الذى لم يتوفر الا للحلقات الثقافية المتاخمة للسلطة والمتعاونة مع وزير الداخلية ! وكانت السلطة — بواسطة هؤلاء المثقفين — تريد أن تشبع حب استطلاعها عن هذا الكيان الفنى الذى « نبت » من تحت الأرض رغم ارادتها لتكون فى موقع يمكنها — فيما بعد — من السيطرة عليه والخسف به تحت الأرض مرة اخرى ، عندما ترى أن الوقت قد آن

لفعل ذلك . وهذه النوعية الخاصـــــة للبيوت ، التى كان بامكانها اقامة سهرة يغنى فيها امام ـ نجم ، حددت بالتالى نوعية الجمهور الذى يتم اختياره للاستماع ؛ والذى لا يمكن ان يكون عمالا أو فلاحين ، أو حتى من المثقفين الشرفاء : ضمير الشعب .

وهكذا استأثر بالفرصة الأولى للاستماع الى امام ـ نجم جمهور كان فى معظم الأحيان يستحق ـ أول من يستحق ـ السياط الملتهبة التى كانت تتهاوى فى جلال ودأب من صـــوت امام ـ نجم ، فتقع واثقة فى مكانها حيث يجب أن تكون . ومع ذلك وبسبب حياة الانفصام بين القول والفعل التى كان يعيشها هذا القطاع من الناس ، لم يكن بوسعهم ان يتعـــرفوا على انفسهم فى المـــرآة ـ او لعلهم لم يشئوا ذلك ـ فما دام امام ـ نجم يغنى مثلا : « يعيش التنابلة فى حى الزمالك . . » ويعيشون هم بالذات فى حى آخر كالدقى او العجوزة او جاردن سيتى أو مصر الجديدة ، فيكون الشعور ـ ولو مؤقتا ـ بأن السوط ـ لا يطولهم هم ـ بل لابد انه يعنى ـ دائما ـ « الآخرين » ! قليل جدا من هذا الجمهور الذى اعترف لنفسه بأنه لا جدوى من الهرب ، وأن امام ـ نجم ، انما يقــــدم المواجهة الصادقة ، بنقاء تام واستبسال كامل ، وعليهم أن يتقبلوا هذه المواجهة بالعرفان ، ويدعمونها الى حد الفداء ، أو يناصبونها العداء ، ويبذلون ما فى وسعهم للقضاء عليها !

وانقسمت هذه القلة بالفعل أمام هذا الاختيـــار الى قسمين :

١ ــ المدعمون : وتدعيمهم معنويا ــ غالب الأمر ــ بحماس الاستحسان والاجهاش ببكاء اللوم الذاتى والحسرة .

٢ ــ المقوضــــــون : ومحاولاتهم معنــوية ومادية بحملات التهوين من شأن قيمة البنيان الفنى الراسخ ــ بل وانكاره ــ وأفردت الصفحات لمقالات الضرب والهجــــوم والتشويه ، والاتهامات الشخصية فى الصحف والمجلات كافة ــ أبرزها مجهودات الموسيقى سليمان جميل ــ شقيق فايدة كامل . زوجة النبوى اسماعيل وزير الداخليــة السابق ــ وسيد مكاوى الذى علمه الشيخ امام العزف على العود ! ــ وضرب الحصار الاقتصادى ، وحرب التجويع حول الشيخ والشاعر ــ رغم أن الحصار كان مضروبا جاهزا ، وكان الجوع زميلا ملازما لهما .

وواصل الباقون موقف الاستماع بشغف والتلهف على جمع التسجيلات وحضور دعوات الاستماع مع الهــــروب المتواصل من مسئولية الدعم أو التقويض .

وكان هؤلاء هم الجمهور الغالب . وحقيقة الأمر أن ذلك الجمهور « المحايد » ساهم بشكل غير مباشر فى تقوية جبهة المعادين وكان فى واقعه جزءا لا يتجزأ من هذه الجبهة . وحين امتدت يد السلطة وأطلقت قرارها بالاعتقال مدى الحياة ، على امام ــ نجم ، انفض هذا الجمهور « المحايد الموقف » لأنهم بمواقعهم على وئام مع السلطة ومع المعادين للكيــان

الفنى ، ومتى احتدم الموقف فهم مستعدون دائما — يافندم — لسحب اعتراضاتهم وشرب دم « أمام — نجم » وأكل لحمهما لو صدرت بذلك التعليمات .

الطريف أنه فى حملة التشويه التى قامت بها أجهزة وزارة الداخلية ، اعتمدت الحملة على ابراز المعايرة بأن الشيخ والشاعر من المدخنين للحشيش .. ولكنها اضطرت الى سحب هذا السلاح حيث كان كبار مسئولى الدولة فى السلطة الناصرية : — والساداتية بعدها : من المدخنين للحشيش ، بالاضافة الى بعض كبار فنانى الدولة .

وبعدها اكتفت الأجهزة بالتركيز على اتهام امام — نجم بالشيوعية ، الأمر الذى استطابه الماركسيون والشيوعيون، اذ انهم بافتقارهم الى الكوادر الفنية الفذة ، مع عجزهم عن اتخاذ المواقف الصريحة الشجاعة ذات الأثر الجماهيرى الفعال ، كان اتهام امام — نجم بالشيوعية مما يشرفهم ويعطيهم مكسبا جماهيريا ، لم يكن فى حسبانهم أو امكانياتهم. والحقيقة أن امام — نجم — مثل الشهيدين العاملين خميس وبقرى : بسيطين .. معدمين مثل سواد المستضعفين من الشعب المصرى المخذول .. برزا من تحت طحن الرحى ليعكسا رؤية النبض الشعبى . هذا النبض الشعبى — الذى يدق فى عروق وقلب شعب مسلم اساسا وقبل كل شىء — فهل يمكن أن يكون الا متكونا من القرآن والمسجد والكتاب عبر ١٤٠٠ سنة كان الأزهر وعلماؤه — معظم الوقت — منارة العزة والكرامة لهذه الأمة ؟

عندما تفجرت الحركة الطلابية فى ينـــاير ١٩٧٢ ، كان الشيخ والشاعر خارجين لتوهما من المعتقل ، بعد قضـــاء ثلاث سنوات وفوجئا بأغنياتهما شعارات يرفعها الطلاب :

« ما تقــوليش ما تعيـــــدليش
حرب الشعب وغيرها مفيش ! »

ووجد امام — نجم الفرق الشاسع بين هذه الجمهرة من العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين الصادقين — (ضمير الشعب المصرى) — وبين تلك الجماعات « الزنخة » التى كانت تحوطه قبل الاعتقال ولا يجد بينهم سوى « اليويو — الذى يفرد لســـــانه ويضمه مثل الأستك وفق المبـــــلغ الذى يتقاضاه ممن لهم مصلحة فى فرد أو ضم اللســـــان .. » و « الحلاويلا — الذى يتمركس بعض الأيام ويتمسلم بعض الأيام ، ويصاحب كل الحكام وبـ ١٦ ملة . » و « القواد الفصيح — الذى هو على استعداد دائم لبيع وعرض بنات أفكاره تحت الطلب ! »

واذا كانت جمهرة النبض الشعبى الصادق قد وجدت فى غناء امام — نجم كل ما افتقدته فى أجهزة الاعلام فكرا وفنا وصدقا — على طول العهد الناصرى والعهد الساداتى — فقد وجد أمام — نجم فى النبض الشعبى المتبدى المتصاعد والمعبر عن نفسه ببطولة فذة رغم البروج المشيدة :

« فرحة هلت واحنا حزانى »

وكما وقف احمد فؤاد نجم امام خامته : « اللغة العامية المصرية » يعيد اكتشافها ليصوغ بها رؤيته ، وقف الشيخ « امام عيسى » أمام فنية الترتيل القرآنى وروافده التابعة : « موشحات المدائح النبوية والتسابيح والابتهالات الدينية » ووجد فيها بئره الملىء يغرف منه بسخاء ويصوغ منه مفهومه لرسالة : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . وقد وجد فى شعر أحمد فؤاد نجم المحور الذى يستطيع أن يتعشق معه بموسيقاه وأدائه فينجدل منهما عمل فنى يتمم بعضه البعض فى تجانس ووحدة .

والذى يجب أن نعرفه أن « الشيخ امام » حافظ القرآن بقراءاته جاء من مدرسة « الجمعية الشرعية » وكان رئيسها الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله ، مثلا أعلى للشيخ امام فى مرحلة شبابه الأولى . ويذكر الشيخ امام لشيخه العالم الفاضل انه صعد منبر الأزهر عند تسلمه شهادة العالمية وصاح : « يا علماء الدين ، يا حكام البلاد ، انتم على ضلال ، حتى تعودوا الى كتاب الله وسنة رسول الله » . — ويقول الشيخ امام أنهم اتهموه بالجنون بعد أن القوا به فى سجن المحافظة .

ولا شك أن تلك النظرة « الشرعية » ترسخت فى وجدان الشيخ ، واثمرت موقفه الجسور الحازم من كل أشكال الميوعة والتصنع و « الضلال » فى الموسيقى والغناء . وقد حاز « الشيخ امام » بفضل هذا الموقف « الجهادى » أسبقية لم يكن لها مثيل فى تاريخ بلادنا : هى أسبقية كونه أول موسيقى

واول مغن يدخل المعتقل بسبب موسيقاه وغنائه . ولعلنا نجد فى اجراء اعتقال « الشيخ امام » اعترافا ضمنيا من السلطة — الناصرية والساداتية على السواء — بأن هذا الرجل قدم لأول مرة ، وبشكل فعال وبارز « موسيقى الرأى » و « غناء الراى » ونجد أنه حقق ذلك بكل دماء الموسيقى الشعبية .

ازاء موسيقى وأداء الشيخ امام لا يمكن للمستمع أن يغفل :

أولا : أنه « شيخ » .

ثانيا : انه خارج من « فنية الأداء الدينى » غير متنكر لها بل مطوعا لها ، مستغلا من امكانياتها ما يمكن أن يدعمه فى توظيفه الجديد « الغناء السياسى » الذى يعرف أنه استمرار لرسالته الدينية ، كما عرفها عند مربيه الشيخ خطاب السبكى: قول المعروف والنهى عن المنكر ، من فوق أعلى المنابر ، ولو كان ثمن هذا القول الزج فى السجون أو الاتهام بالجنون :

« معدودة الخطاوى رايحه ولا جايه »

« ما يلمكشى خوفك ع الدنيا ألدنيه »

« قول الكلمة عالى بالصوت البلالى »

« قول ان العدالة دين الانسانية »

« كامش ليه وخايف فرج الشفايف »

« هو العمر واحد ولا العمر ميه ؟ »

ثالثا : عنصر الطرب المؤثر الشجى المطعم لألحانه كشىء أساسى وواضح ، لكننا نعلم أن « عنصر الطرب » عند « امام » ليس كما استخدم عند أم كلثوم وعبد الوهاب او كما استخدم فى تراث « ملا الكاسات وسقانى » كوسيلة مغيبة عن الوعى : مخدرة ومثبطة : ان الشيخ امام يحتوى « عنصر الطرب » ويسيطر عليه ويأخذ سره المؤثر الشجى ، ويستخدمه كأفضل ما يكون ، متجنبا سلبياته ، دون أن ينسف ما يمكن أن يستخرج منه ايجابيا : انه يتناول «عنصر الطرب» ليقترب به من القلب فى الفة ، وهو محتفظ للعقل بكامل صحوته ووعيه ، سواء كان استخدامه دراميا كما فى قطعته « الأرغول » . أو كاريكاتيرا ساخرا كما فى قطعته « القواد الفصيح » . ويمكن للقارىء أن يتفهم مقصدى بمراجعة الاستماع المركز لألحان الشيخ أمام : « الخط ده خطى » ، « دلى الشيكاره » ، « الأوله بلدى » ثم « الطنبور » التى يتفجر فيها — هىوموالها « ورد الجناين » — الوجدان الاسلامى للشيخ امام : خصبا جياشا : وبرهانا قاطعا على « اسلامية » النبض الشعبى والحمد لله . ولعل لحن « الطنبور » و « مواله » وأسلوب آدائه الغنائى ، يكون النموذج الفذ لنجاح « الشيخ امام » فى تطويع وتطوير امكانيات غناء « الشيخ » و « البطانة » من غنية ألابتهالات والمدائح النبوية .

صافى ناز كاظم

محتويات الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة

دار العلوم للطباعة
القاهرة، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت: ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤١٢٠٣٢
الترقيم الدولى ٣ ــ ٦٢ ــ ١٤٢ ــ ٩٧٧

دار الإعتصام
٨ شارع حسين حجازى ـ تليفون ٢٦٠٣١ / ٣١٧٤٨ ـ ص.ب ٤٧٠ ـ القاهرة
للطبع والنشر والتوزيع

٦٠ قرشا

053
89
06870003